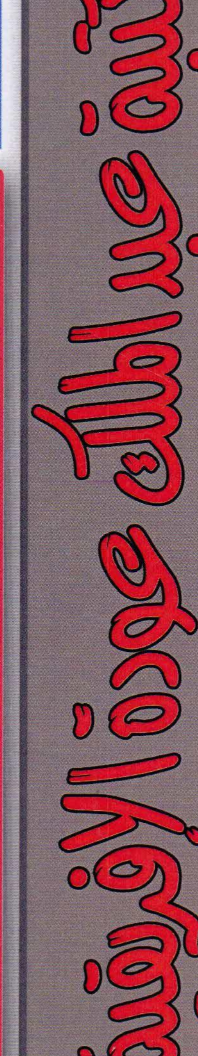




الاستعمار الفرنسي للسنغال

1854ـ 1865م
وموقف القوى الإسلامية منه



د. عبدالله عيسى عيسى



هذا الكتاب

إنّ دراسة موضوع الاستعمار الفرنسي في السنغال (1854ـ 1865م) وموقف القوى الاسلامية منه، يبدو بالغ الأهمية نظراً لمجموعة من الاعتبارات التي يمكن إجمالها فيما يلي:

خصوصية الحضور الفرنسي في هذا البلد، والذي تجلى في كون السنغال كان بمثابة حقل جُربت فيه مختلف أوجه السياسة الاستعمارية، حيث تمكن المتربول من مراكمة قدر كبير من المعرفة الميدانية، استطاع توظيفها فيما بعد في بلدان إفريقية أخرى.

كون سنة 1854م تعتبر منعطفاً تاريخياً خطيراً؛ إذ طبعتها نزعة التوسع العسكري، التي ستفضي ـ في نهاية المطاف ـ إلى فقدان السنغال استقلاله، مكرسة بذلك تحول الحضور الفرنسي في المنطقة من حضور تجاري إلى احتلال عسكري وسياسي.

إنّ سياسة الغزو التي دشنها الوالي فيديرب (Faidherbe) ابتداء من سنة 1854م، لم تكن في واقع الأمر من صنع ظرفية النصف الثاني من القرن 19م؛ بل هي نتيجة لإخفاق تجارب سياسية عديدة كانت بمثابة محك للعقلية الاستعمارية.

كما شكّل الإسلام ـ وخاصة حركة الحاج عمر الجهادية ـ عقبة حقيقية في وجه الأطماع الفرنسية بالسنغال، وخطراً كبيراً على مستقبل وجودها بالمنطقة ككل. ومما يزكي هذا التخوف من قبل الفرنسيين، الانتصارات المتلاحقة، وسقوط الأقاليم، الواحد بعد الأخر، تحت نفوذ هذه الحركة الفتية، الأمر الذي دفع بالسلطات الفرنسية إلى استعمال كل ما في وسعها لاحتواء الحاج عمر ودولته، بالوسائل السلمية من الوعد والوعيد أولا، ثم باستعمال القوة، وبعد وفاة هذا الأخير، تمكنت فرنسا من الاجهاز على دولة الحاج عمر بنهج سياسة التفرقة بين الأمراء من جهة، واستعمال لغة الحديد والنار لدعم المنصاعين لها من جهة ثانية، مما مكنها من فرض استعمارها على السنغال بشكل نهائي مع نهاية القرن19م.

ودراستنا للحقبة الزمنية الممتدة من 1854ـ 1865م، يبررها في نظرنا الأهمية الخاصة التي تحظى بها هذه الحقبة في تاريخ السنغال المعاصر.




I.S.B.N. 978-977-812-057-8
9 789778 120578

الاستعمار الفرنسي في السنغال 1854ـ 1865م وموقف القوى الاسلامية منه

تأليف

د.عبدالله عيسى

جامعة حلب كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الناشر

المكتب العربي للمعارف

عنوان الكتاب : الاستعمار الفرنسي في السنغال
اسم المؤلف : د. عبد الله عيسى
تصميم الغلاف : شريف الغالي

الناشر
المكتب العربي للمعارف
26 شارع حسين خضر من شارع عبد العزيز فهمي
ميدان هليوبوليس – مصر الجديدة – القاهرة
تليفون/ فاكس: 01283322273-26423110
بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى 2017

رقـم الإيداع : 2016/22137

الترقيم الدولي :I.S.B.N.978-977-812-057-8

مقدمة

إنَّ دراسة موضوع **الاستعمار الفرنسي في السنغال (1854ـــ1865م)** وموقف القوى الاسلامية منه، يبدو بالغ الأهمية نظراً لمجموعة من الاعتبارات التي يمكن إجمالها فيما يلي:

® خصوصية الحضور الفرنسي في هذا البلد، والذي تجلى في كون السنغال كان بمثابة حقل جُربت فيه مختلف أوجه السياسة الاستعمارية، حيث تمكن المتربول من مراكمة قدر كبير من المعرفة الميدانية، استطاع توظيفها فيما بعد في بلدان إفريقية أخرى.

® كون سنة 1854م تعتبر منعطفاً تاريخياً خطيراً؛ إذ طبعتها نزعة التوسع العسكري، التي ستفضي ـــ في نهاية المطاف ـــ إلى فقدان السنغال استقلاله، مكرسة بذلك تحول الحضور الفرنسي في المنطقة من حضور تجاري إلى احتلال عسكري وسياسي.

® إنَّ سياسة الغزو التي دشنها الوالي فيديرب (Faidherbe) ابتداء من سنة 1854م، لم تكن في واقع الأمر من صنع ظرفية النصف الثاني من القرن 19م؛ بل هي نتيجة لإخفاق تجارب سياسية عديدة كانت بمثابة محك للعقلية الاستعمارية.

® كما شكَّل الإسلام ـــ وخاصة حركة الحاج عمر الجهادية ـــ عقبة حقيقية في وجه الأطماع الفرنسية بالسنغال، وخطراً كبيراً على مستقبل وجودها بالمنطقة ككل. ومما يزكي هذا التخوف من قبل الفرنسيين، الانتصارات المتلاحقة، وسقوط الأقاليم، الواحد بعد الآخر، تحت نفوذ هذه الحركة الفتية، الأمر الذي دفع بالسلطات الفرنسية إلى استعمال كل ما في

وسعها لاحتواء الحاج عمر ودولته، بالوسائل السلمية من الوعد والوعيد أولا، ثم باستعمال القوة، وبعد وفاة هذا الأخير، تمكنت فرنسا من الاجهاز على دولة الحاج عمر بنهج سياسة التفرقة بين الأمراء من جهة، واستعمال لغة الحديد والنار لدعم المنصاعين لها من جهة ثانية، مما مكنها من فرض استعمارها على السنغال بشكل نهائي مع نهاية القرن19م.

ودراستنا للحقبة الزمنية الممتدة من 1854ــــ 1865م، يبررها في نظرنا الأهمية الخاصة التي تحظى بها هذه الحقبة في تاريخ السنغال المعاصر.

على المستوى الدولي: اتسمت هذه الحقبة بتغيرات اجتماعية وسياسية كبرى، تجلت على الخصوص في تركيز النظام الإمبراطوري، الذي أفرز مداً استعمارياً كبيراً غطى بتأثيراته معظم أقطار القارة الإفريقية، بما في ذلك السنغال، الذي استمر خلال هذه الفترة من تاريخه متعلقاً ببنايته الاجتماعية والسياسية التقليدية، والتي كانت قد اهتزت بعمق نتيجة احتكاكها بمعطيات ومؤشرات حضارة هذه الحقبة.

وعلى المستوى المحلي في السنغال، فتعتبر هذه الحقبة منعطفاً تاريخياً هاماً في حياته؛ إذ حتمت عليه الظرفية التاريخية أن يواجه فيها إحدى أكبر القوى الاستعمارية في ذلك القرن ألا وهي فرنسا، بعد أن عبرت الممالك السنغالية عن رفضها لأي شكل من أشكال السيادة الفرنسية على مجالها الترابي حتى عام 1854م.

وأما **نهاية الفترة المدروسة 1865**م فلها أكثر من دلالة، فأهم حدث على المستوى المحلي هو إخماد نار المقاومة، المتمثلة بوفاة زعيمها الحاج عمر الفوتي، ونهاية فترة حكم الوالي فيديرب، بعد أن أرسى قواعد الوجود الفرنسي ليس فقط في السنغال، بل في معظم أرجاء إفريقيا الغربية .

وأما فيما يتعلق **بدواعي اختيارنا لهذا الموضوع**، والذي نرجعه إلى مجموعة من الاعتبارات، يمكن تلخيصها بما يلي:

- ❖ إنّ الاشتغال بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء يندرج ضمن اهتماماتنا بتاريخ هذه القارة، ويدخل أيضاً ضمن تخصصنا من بعد الإجازة.
- ❖ تحامل بعض الدارسات الأجنبية على تاريخ السنغال، ومحاولة قلب الحقائق، حيث جاءت بعض استنتاجاتها مجانبة للواقع التاريخي، ومنها:
  - ▪ تحميل الإسلام مسؤولية انمحاء فنون إفريقيا.
  - ▪ اعتبار اندماج السنغال في دار الإسلام شبيهاً بالاستعمار الأوروبي لأمريكا.
  - ▪ التأكيد على أن الإسلام لم ينتشر بين الناس إلا عن طريق العنف والغزوات، ولم يشمل بشكل جدي إلا علية القوم من موظفين وأمراء.[1]

أمام هذه الأحكام القيمية، وجدنا أنفسنا - وبدافع علمي- نبحث في متون الكتب عن حقيقة وواقع الأمر، ليس فقط فيما يخص الإسلام بالسنغال، بل كل ما يتعلق بموقف الإسلام تجاه الوافد الجديد.

- ❖ إظهار تجليات العلاقة بين الممالك السنغالية وفرنسا.
- ❖ خصوصية الحضور الفرنسي في السنغال، فكانت السنغال أولى المستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا.
- ❖ الرغبة في سد فجوة من فجوات تاريخ إفريقيا الحديث، ولملمة حلقاته المفقودة.

---

[1] - Delafosse (M), 2013, Les noirs de l'Afrique Payot, New York : Parkstone, P. 48.

بناء على ما تقدم، نسعى في هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على تاريخ السنغال، بغرض إثراء وإخصاب الدرس العربي المتعلق بإفريقيا جنوب الصحراء والعمل على إغناء المكتبة العربية في هذا الشأن.

وعند إنجاز هذا العمل، اعترضتنا مجموعة من **الصعوبات**، منها ما هو منهجي، وآخر يتعلق بطبيعة الكتابات المصدرية والمرجعية:

✸ تأتي في طليعة المصاعب، مسألة تحديد المجال الجغرافي السنغالي تحديداً دقيقاً، فالسنغال ـــ كما ورد في هذا البحث ـــ عبارة عن ممالك تختلف في بنياتها السياسية والاجتماعية، ولكل منها حدودها السياسية التي تتوسع وتتقلص حسب ميزان القوى في المنطقة. ناهيك عن تدخل الإمارات البيضانية[2] ومحاولة فرض سيادتها على الضفة اليسرى لنهر السنغال. كما أنَّ تدخل القوى الأوروبية خاصة فرنسا وإنكلترا في القرن 19م، زاد من تعقيد هذه الوضعية؛ بحيث أصبحت غامبيا مجال نفوذ لبريطانيا، في حين استقرت فرنسا في سانت لويس، وبدأت تتطلع لمنطقة النهر التي كانت تعتبرها مجالها الحيوي. ومن هنا يمكن القول، إنَّ بداية رسم الخريطة السياسية للسنغال قد بدأت في هذه الفترة.

✸ صعوبة التعامل مع المادة المصدرية، خاصة الأجنبية منها، التي غالباً ما تقدم وجهة نظر أحادية الجانب.

---

[2] ـ إنَّ إطلاق تسمية **البيضان** أو البياضين على سكان هذا الجزء من الصحراء الإفريقية الكبرى يعود إلى الرحالين العرب في القرون الوسطى، وذلك لتمييز هؤلاء السكان ذوي البشرى السمراء (الضاربة أحياناً إلى البياض) عن بقية سكان المنطقة الزنوج ذوي البشرى السوداء (السود). وقد احتفظ البيضان لأنفسهم على مرة الزمن بهذه التسمية حتى أصبحت علماً على البلاد تماماً كصحراويتها. وما تزال تسمية البيضان دالة إلى يوم الناس هذا على الموريتانيين العرب (غير الزنزج) مع شيوع كتابتها "بيضان" بدل بيضان؛ أي بإبدال حرف الضاد ظاء. راجع: محمدو بن محمذن، 2001، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، الرباط، منشورات معهد الدارسات الإفريقية، ص. 17- 18.

ومع ذلك، حاولنا قدر المستطاع تذليل هذه العقبات والتغلب عليها من خلال اقتحام ثنايا الموضوع، وقراءة ما بين السطور، ولمّ شتاته من مصادر متعددة المشارب.

أما **إشكالية الدراسة** أو سؤال الأسئلة الذي يطرحه موضوع بحثنا فهو: كيف تمكنت فرنسا من فرض سيطرتها على السنغال، وهل شكل هذا الاحتلال خطراً حقيقياً على الإسلام، وبالتالي ما هو موقف السلطة الإسلامية منه؟

ومقاربتنا لهذه الإشكالية، تستدعي معالجة القضايا التالية:

- دراسة الوضعية الجغرافية والاجتماعية والسياسية للسنغال قبل التدخل الفرنسي.
- معرفة مراحل انتشار الدين الإسلام وتغلغله في السنغال.
- تتبع بدايات الحضور الأوروبي في المنطقة وردود الفعل المحلية.
- إلقاء الضوء على علاقة السنغال السلمية مع الفرنسيين حتى عام 1854م.

أما عن **المناهج** التي تم التسلح بها في دراسة البحث؛ فقد تم التعويل على المنهج الاستقرائي؛ فاتجهنا إلى القراءات المكثفة لكم لا بأس به من المصادر، والمراجع، ومن ثم في مرحلة لاحقة تمّ استنباط وتفكيك النصوص المصدرية التي تمّ بناء الشكل العام للأطروحة عليها.

وكذلك عولنا على المنهج المقارن، وذلك بعدم الاكتفاء بالتاريخ الوصفي السردي، الأمر الذي استلزم وجود عدة قضايا مشتركة، ومختلفة بين الأطراف المقارن بينها، من خلال السؤال والإجابة، ووصف التغيرات والأحداث ليتم بعد ذلك استخلاص النتائج العامة.

وأخيراً تمّ الجمع بين تلك المناهج ضمن خلاصة علمية تهمُ الموضوع بشكل خاص، حيث تمت إعادة تركيب المعلومات بطريقة منهجية؛ عالجت أسباب الظاهرة، ودوافعها، والآثار الناجمة عنها، ورغم ذلك فإننا لا ندعي القدرة على الانفتاح على تلك الطفرة المنهجية الواسعة في مجال دراسة العلوم الإنسانية، ومحاولة توظيفها في انجاز الدراسة، ربما سبب ذلك طبيعة الموضوع.

وأخيراً نتمنى من الله تعالى أن يكون هذا العمل المتواضع بمثابة لبنة جديدة في حقل التاريخ الإفريقي، ومساهمة متواضعة في إعادة كتابة تاريخ السنغال. وأنْ نكون قد أدينا ولو جزء يسير من هذه المهمة العلمية والثقافية. وكما لا ىفوتنا أنْ نعتذر عن أي نقص أو خطأ كان في موضوعنا، رغم محاولاتنا الاجتهاد، والإلمام بكافة عناصره، فإنْ أصبنا فمن الله وحده، وإنْ أخطأنا فمن أنفسنا.

الفصل الأول

الأوضاع العامة في السنغال قبل التدخل الفرنسي

1ـــ إشكالية الاسم

من البديهي ونحن نعالج موضوع الاستعمار الفرنسي في السنغال وموقف السلطة الإسلامية منه، أن نحدد بشكل سريع مدلول تسمية البلاد بالسنغال.

وتكمن أهمية هذا الموضوع في إبراز اهتمام المصادر العربية بهذه البقاع منذ أمد بعيد، بحيث وردت بين ثناياها تسميات تختلف من مصدر لأخر، إلا أنه يمكن اجمالها في مصطلحين اثنين: سنغانة، وصنهاجة.

فالأول قد ورد في كتاب "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"[3] لصاحبه عبدالله البكري، وكتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"[4] لفضل الله العمري. والمقصود بالأول اسم مدينة توجد على ضفاف نهر السنغال.

أما الثاني، فيراد به قبيلة صنهاجة كانت تسكن الضفة اليمنى لنهر السنغال. وقد ركز أغلب الباحثين على هذين المصطلحين واعتبروهما مصدر تسمية البلاد بالسنغال.

وإذا كانت المصادر العربية أخطأت في تسمية النهر[5]، الذي من المحتمل أنه أعطى اسمه للبلاد، فإنَّ المصادر الأوروبية، وخاصة البرتغالية منها، هي التي أطلقت لأول مرة اسم سكان الضفة اليمنى على النهر (Rio canaga rivière des Azénégues). واعتبره آخرون، بعد أن أطلقوا عليه اسم كاناكا (Canaga)، حداً فاصلاً بين سكان الضفة اليمنى، وأراضي السود[6]. وذهب كادا موستو، في إطار وصفه للممالك والشعوب النهرية، إلى

---

[3] ـ عبدالله البكري، 1965، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريس، ميزونوف.

[4] ـ فضل الله العمري، 1988، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة.

[5]- لقد ورد في المصادر العربية باسم ((النيل)).

[6]- عبد النبي السفيوي، "الاستعمار الفرنسي في السنغال 1854- 1876م"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، الرباط: جامعة محمد الخامس، 1995- 1996م، (مرقونة)، ص. 13.

حد إطلاق اسم سينيكا (Sénéga)على إمبراطورية جولوف (Djolof)[7]، وأنها توجد على النهر الذي يحمل نفس الاسم.[8]

ويستفاد من خلال هذه المصادر، أنَّ مصطلح سينيكا أو كاناكا كان له بعدين:

الأول، مرتبط بأول نهر دائم في إفريقيا جنوب الصحراء.

والثاني، مقصود به مملكة سيطرت لمدة طويلة على منطقة الضفة اليمنى لنهر السنغال.

خلاصة القول، إنَّ مصطلح السنغال كما لاحظنا أخذ أبعاداً مختلفة؛ لذا ظل يحوم حول مدلوله الكثير من الغموض، ولم يصبح حقيقة جغرافية وسياسية إلا في القرن 19م. هذا مع العلم أنَّ المنطقة التي كان الفرنسيون يطلقون عليها في بداية القرن 19م اسم السنغال، كانت تتحدد في مدينة سانت لويس.

2ـــ البيئة:

إنَّ الحدود الحالية للسنغال هي وريثة التقسيم الاستعماري، وهي في معظمها حدوداً طبيعية خلافاً للعديد من البلدان الإفريقية. بحيث يحده من الغرب المحيط الأطلسي، الذي ساعد على الاتصال المبكر للرحالة الأوروبيين بالمنطقة، ومن الشمال، يعتبر نهر السنغال حداً فاصلاً بين السنغال وموريتانيا.

---

[7]ـ منطقة جغرافية تقع وسط بلاد السنغال، عرفت ميلاد مملكة جولوف المهمة التي بسطت سلطتها على مختلف أرجاء السنغال قبل أن تتمزق وحدتها أواخر القرن10هـ/16م، وتنشطر إلى ممالك صغيرة هي: والو، كايور، وباول. راجع: محمدو بن محمذن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر، م.س ، هامش ص.77.

[8]- Ca Da Mosto (A .De.), 1895, Relation des voyages à la cote occidentale d'Afrique, Paris, publié par M. Charles Schefer, p. 317.

وتكمن أهمية هذه المنطقة في كونها كانت مصدر تلاقح فكري وعقائدي بين سكان الضفتين. وفي الشرق توجد مالي، أما الجنوب، فيحد السنغال بلدان هما: غينيا كوناكري، وغينيا بيساو.

وهذا الموقع جعل السنغال يقع في أقصى غرب القارة الإفريقية بين خط عرض 12 و17 درجة شمالاً، وما بين خط طول 11 و17 درجة غرباً، على مساحة تقدر بـــ 197,000 كلم2.[9]

ويغلب على البلاد طابع الانبساط؛ بحيث أنّ أعلى نقطة لا تتعدى 400م في أقصى الجنوب. ومن مخلفات التقسيم الاستعماري وما ترتب عنه من صراعات حدودية ومشاكل داخلية، حالة غامبيا التي تبدو كجيب طولي يمتد في جنوب السنغال من الشرق إلى الغرب حول النهر الذي اشتقت منه اسمها. كذلك كان لبروز غامبيا في السنغال بهذا الشكل أن عزلت القسم الجنوبي منه عن بقية البلاد. وكانت القوى الاستعمارية السابقة ـــــ البريطانية والفرنسية ـــــ تعرف تماماً مدى أهمية هذه المنطقة من الناحية الاستراتيجية؛ لذلك قامت فرنسا بمحاولات لضم غامبيا في ستينيات القرن19م وفي سنتي 1902 و 1903م وتعويض بريطانيا عنها، لكن هذه المحاولات لم يُكتب لها النجاح.[10]

ـــ التكوين الجيولوجي:

يقطع الحد السياسي ما بين السنغال وغامبيا مظاهر طبيعية واحدة، تتمثل في الحوض الرسوبي الذي يرجع إلى فترة ما بعد الايوسين. ومن أبرز

---

[9] – Saint- Martin (J.Y.),1989, Le Sénégal Sous le second empire: naissance d'un empire colonial, 1850-1871, Paris, Karthala, p. 60.

[10] ـ عبد النبي السفيوي، "الاستعمار الفرنسي في السنغال"، م.س، ص. 14.

مظاهر السطح تلك، السهول الرملية المنخفضة التي تقطعها أودية ضحلة واسعة لأنهار السنغال وغامبيا وكازامانس.

وقد شهدت الأجزاء الغربية نشاطاً بركانياً في الزمنين الثالث والرابع، مما أدى إلى ظهور جزر"كيب فرد"، و"الرأس الأخضر"، وبعض الجزر الساحلية في أقصى الطرف الغربي لإفريقيا. وقد اتصلت بعض هذه الجزر بالساحل وظهرت على هيئة شبه جزيرة الرأس الأخضر، واسهمت في خلق موضوع ملائم لقيام ميناء داكار.[11]

- **المناخ:**

تقع السنغال ضمن الأقليم المداري الممطر صيفاً. وهناك فارق ملموس بين الشريط الساحلي الضيق الذي تتأثر حرارته بتيار كناريا، خاصة فيما بين سانت لويس وشبه جزيرة الرأس الأخضر، وبين النطاق الداخلي المرتفع الحرارة نهاراً والأكثر جفافاً، والذي تبدو فيه المؤثرات القارية بشكل واضح. لكن كلما اقتربنا من كازامانس في الجنوب إلا و ازدادت الفترة الممطرة، حيث أنَّ هذه المنطقة تستقبل سنوياً ثلاثة أو أربعة أضعاف من التساقطات مقارنة مع الشمال. أما وسط البلاد وشرقها (منطقة الفيرلو) فتبدو شبه خالية، نظراً للنقص الكبير من الماء الذي تعاني منه.

يفيدنا هذا التقسيم في فهم الصعوبات الكبيرة التي لقيها المستعمر في المناطق التي كانت تشكو من قلة الماء، وخاصة الداخلية فيها، مما أثر على سير عملياتهم فيها. وبما أنَّ الزعامات المحلية كانت تعي هذه الحقيقة، فقد

[11] - Saint- Martin (J.Y.),1 Le Sénégal Sous le second empire, op. cit, p. 37.

كان الماء يدخل في إطار خططها الحربية؛ إذ كانت تعمل على ردم الآبار حتى تنهك قوة العدو.[12]

- **الغطاء النباتي:**

تتباين الحياة النباتية من حشائش الأستبس التي تمتد جنوباً حتى داكار، ويليها سافانا شجرية جافة حتى غامبيا، وسافانا شجرية رطبة في كازامنس، وكذلك تسود بعض الغابات النهرية على امتداد نهر غامبيا، وكازامنس. وكما توجد غابات المانجروف المستنقعية – وإن كانت قد أزيلت في بعض المناطق على طول نهر غامبيا – لزراعة الأرز.[13]

3ـــ السكان:

إذا كان تصنيف المجموعات القبلية الحالية يخلقُ متاعبَ كبيرةً للباحثين، فإنَّ البحث في أصولها وكيفية تكوينها ليس هيّناً؛ ذلك أنَّ المادة المصدرية فيما يخصُّ هذه الإشكالية شبهُ منعدمة، كما أنَّ العلوم التي يمكن أنْ تساعد الباحث في التاريخ (مثل الإنتروبولوجيا والإثنوغرافيا واللسانيات) لم تستطع حلَّ هذا الإشكال، وبالتالي سد جُل الثغرات التي يعاني منها البحث التاريخي في هذا المجال.

ينطبق الأمر كذلك على كتابات الجغرافيين والرحالة العرب في العصور الوسطى، التي لم تتحدث عن القبائل المكوّنة للمجتمع السنغالي، إلا في بعض

---

[12] ـــ القزويني أبو عبدالله زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر ، د. ت، ص. 26 .

[13] ـــ فتحي محمد أبو عيانة، 1983، جغرافية إفريقية (دراسة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول جنوب إفريقيا) الإسكندرية، دار الجامعات المصرية، ص . 250.

الإشارات الطفيفة حول الشعوب التي كانوا على اتصال بها، أو سمعوا عنها، كما أنَّ الأخبار التي جُمِعت في عين المكان من طرف الرحالة الأوروبيين ــــ وخاصة البرتغاليين ــــ لم ترقَ في غالبها إلى مستوى فكِّ رموز إشكالية الأصل والتكوين.

تبقى المادة المصدرية الوحيدة التي اعتمدتْ عليها أغلب الدراسات التي اهتمت بالموضوع، الأسطورة المنقولة عن طريق التواتر التي تُمثّل حالة خاصة في الثقافة الشعبية في السنغال، بالنظر إلى تخصص بعض الفئات في المجتمع (القوالون) بنقل الأخبار.

ومهما اختلفت الآراء حول أصل شعوب السنغال، فإنّها تتفق في مجملها على أنَّ أصل هجراتها جاءت من أدرار إلى وادي نهر السنغال، نظراً للجفاف الذي عرفته منطقة الصحراء، ناهيك عن الظروف السياسية المضطربة للمنطقة. ونتيجة لما تقدم، فقد شكل نهر السنغال نقطة جذب أو بالأحرى بوتقة انصهرت فيها كل الشعوب الأصيلة أو المهاجرة.[14]

ومن أهم المجموعات البشرية الكبرى التي كوّنت المجتمع السنغالي: التكرور، والولوف، والسرير، والفولاني، والماندينغ، والكازامنس، إضافة إلى الشعوب الأمازيغية من صنهاجة وتوارق؛ وهما عنصران ينتميان إلى المجموعات المتوسطية الشمالية.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنَّ المجموعة الأمازيغية بكافة عناصرها الرُحل والمستقرين، لعبت أدواراً أساسية في ربط صلات وعلاقات وطيدة مع شعوب السنغال على مر التاريخ. وكان لقدوم القبائل العربية الدور الأهم في

[14]- Barry (B.).1988. La Sénégambie du XVe au XIXe siégle : Traite négriére, Islam et conquête coloniale. Paris. éd. L'Harmattan, p.30.

إخراج السنغال من عزلتها، وربطها بدائرة الاقتصاد العالمي وبالتواصل الحضاري.

ـ التراتب الاجتماعي:

قبل الحديث عن التراتب الاجتماعي في السنغال، يجب ألا تفوتنا حقيقة أساسية، وهي أنَّ هذا التراتب يختلف حسب اختلاف مقياس التصنيف نفسه؛ بحيث يمكن الحديث عن أشكال مختلفة من التصنيف الاجتماعي، حسب اختلاف معيار وسائل الإنتاج التي تملكها كل فئة اجتماعية، وحسب اختلاف معيار المُعتقد، ثم حسب اختلاف معيار العلم، غير أننا سنركز في دراستنا هذه على الاعتبارات المتعلقة بالتفاوت في الثروة، وبذلك يمكن الحديث عن النبلاء، والفئة المتوسطة (الفلاحين)، وأخيراً العبيد.

أ ـــــــ فئة النبلاء (GARMI):

تضمُّ هذه الفئة الأمراءَ أفرادَ الأسرة الحاكمة، وكبارَ القواد العسكريين، ومن أُضيفَ إليهم عن طريق المصاهرة والزواج، والتحالف السياسي، وهي التي تُسيِّر الشؤون السياسية والعسكرية والإدارية داخل أقاليم المملكة، وتتصدر هذه الفئة قمة الهرم الاجتماعي في السنغال؛ إذ تحتكر سلطة القرار السياسي والإداري، وتستحوذ على الحصة الكبيرة من وسائل الإنتاج، بالمقارنة مع باقي الفئات، كما كانت تعيش ثراءً لا يُدانيها فيه أحد في المجتمع، ويتجلى ذلك في رغد العيش وفيما تتوفر عليه من إمكانيات.[15]

---

[15] - Barry (B.), La Sénégambie du XVe au XIXe siégle. op. cit. p.41.

ب ـــ فئة الفلاحين (BAADOLO):

تشكل هذه الفئة غالبية المجتمع السنغالي، وتعد الفلاحة والرعي من الوظائف الرئيسية لها. وعلى هذه الفئة يقع عبء الضرائب، وتقديم الجنود أيام الحرب. ويمكن القول، إنهم ملزمون بواجبات كبيرة، بيد أنه لا يقابلها إلا حقوق ضئيلة؛ فهم محرومون من المشاركة في الحياة السياسية، ولا يضطلعون بحق المساواة مع النبلاء رغم أنّهم ينتمون إلى فئة الأحرار، كما كانوا مُعرضينَ بِحُكم موقعهم الاجتماعي هذا إلى الاسترقاق.

ت ـــ فئة العبيد (DYAM):

يشكل الاسترقاق ممارسة اجتماعية سائدة في إفريقيا جنوب الصحراء مع اختلاف في وضعية الرقيق السياسية والاجتماعية بين مختلف الإثنيات المكوِّنة للمجتمع الإفريقي جنوبي الصحراء، فإذا كان العبد في المجتمعات الأخرى ـــ غير الإفريقية ـــ يمثل الفئات الدنيا في المجتمع ولا يتمتع بأبسط الحقوق الإنسانية، فالعكس صحيح في ظل المجتمع السنغالي عامة ومجتمع الولوف خاصة؛ ذلك أنَّ النظام العبودي في مجتمع الولوف كانت تضبطه قواعدُ وممارساتٌ تنظيميةٌ مرتبطةٌ بالتنظيمين السياسيِّ والاجتماعيِّ.

وإذا كان الولوف يستعملون مصطلح ديام (Dyam) للدلالة على الوضعية العبودية لفئة معينة من المجتمع، فإنَّ هذا المصطلح شامل لا يعكس حقيقة التقسيم داخل فئة العبيد، ويظهر أنَّ هناك ثلاثة أصناف من العبيد، وهي:

1. عبيد المنزل: وهنا يجب التمييز بين عبيد الأم وعبيد الأب، حيث كانت وضعيتهم مختلفة داخل الأسرة، فقد كانت أعمالهم مرتبطة عموماً بالنشاط الأسري من أعمال منزلية وزراعية.[16]

---

[16]- Carrére (F.) et Holl (P.). 1855, De la Sénégambie française, Paris, Defirmin Didot, p. 55.

2. **أسرى الحرب.**

3. عبيد العرش: وهذا الصنف الأخير هو الذي يهمّنا في هذه الدراسة، بحكم علاقاته المتميزة بالجهاز السلطوي.

والغالب على الظن، أنّ وضعية عبيد العرش تختلف بشكل كبير عن الصنفين المذكورين أعلاه، فهم يحصلون على نصيبهم من غنائم الحروب، ويقومون كذلك بعمليات النهب ضد الفلاحين أثناء الاضطرابات الاجتماعية؛ وبذلك يشكلون القوة الضاربة التي اعتمدت عليها الأنظمة القائمة لضمان استقرارها، وحماية نفوذها سواء في داخل الممالك أو خارجها.

والملاحظة الأساسية التي تثير انتباه الدارس لهذا الصنف، هي أنّه رغم وضعيتهم الدُنيا في التركيبة الاجتماعية، فإنّ ذلك لا يقف أمام إمكانية وصولهم إلى مركز السلطة، لذلك نجدهم يتبوّؤون مناصبَ عُليا في الدولة، فاقت في بعض الأحيان وضعية النبلاء السياسية.[17]

خلاصة القول، إنّ التراتبَ الاجتماعيَّ داخل مجتمع السنغال، لم تتولد عنه علاقات اجتماعية واضحة المعالم بين مختلف مكوناته، نتيجةَ تحكم بُنى القرابة في المجتمع، والتعارض الوظيفي بين مختلف الفاعلين فيه، ورغم أنّ التاريخ الاجتماعي للسنغال قد خلّف لنا بعض الحالات الاستثنائية في انفتاح بعض الفئات على الأخرى، خاصة في حالات معينة كالزواج مثلاً، فإنّها لم تؤثر في شيء على تلك التركيبة الاجتماعية.

ومن هنا نفهم صيرورة التنظيمين السياسي والاجتماعي إلى حين دخول الإسلام إلى السنغال، الذي برز دوره في محاولة تغيير بعض المفاهيم التقليدية التي بُنيت عليها النظم السياسية لممالك السنغال.

---

[17]- Barry (B.), La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, op.cit.. p. 42.

4 ـــ الحياة السياسية:[18]

ترتكز دراستنا على المعطيات التاريخية في علاقة السلطة السياسية بالتركيبة الاجتماعية، علماً بأنّ ما يُميز المجتمع السنغالي، هو العلاقة الوثيقة بين التنظيمين السياسي والاجتماعي؛ مما دعا بعض الباحثين إلى القول بعدم إمكانية البحث في المجال السياسي دون دراسة التركيبات الاجتماعية.[19]

وقبل ذلك، لا بد من الإشارة إلى الوضعية التنظيمية للمجتمع السنغالي، قبل ظهور النظام الملكي؛ *فما هي إذاً خصوصيات تلك الوضعية ؟*

يرتبط الجواب هنا بالتركيز على ممالك الولوف، الذين تجمعهم وحدة لغوية وإثنية وثقافية، باعتبار أنّ دراستنا ستركز على تحليل تنظيماتها السياسية والاجتماعية، فضلاً عن إمكانية توسيع نتائج هذا التحليل لتشمل ممالك أخرى مثل مملكتي سين[20] وسالوم[21]، وكذلك مملكة ليبو (Lébou)، بغض النظر عن ما بينها من اختلافات بسيطة، هدفنا في ذلك تركيز البحث وتجنب الاجترار.

إنّ قبيلة الولوف، التي تشكل غالبية سكان السنغال، كان لها زعماء يُسيّرون حياتها العامة، مع تباين في الألقاب والوظائف حسب اختلاف وضع

---

18 ـ لن نتطرق هنا إلى دراسة التشكيلات السياسية في السنغال، لأنّه موضوع تناوله كثير من الباحثين. ولمن أراد الإستزادة والتعمق يمكنه مراجعة: أحمد الأزمي، 2000، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج. 2، صص 426 – 518. عبد النبي السفيوي، "الاستعمار الفرنسي في السنغال 1854- 1876"، م.س، صص. 25– 40.

– La Sénégambie du XVe au XIXe siégle., pp.26 – 43.

19 -Ibidem, p. 47.

20 ـ سين: كانت هذه المنطقة تتكون من عدة كيانات سياسية، وبتوحيدها في ظل سلطة الكيلولر أطلق اسم سين تذكارا للأميرة سيني ميو Siini Mew، من أسرة الكيلوار.

21 ـ سالوم: كانت تُعرف باسم فقيه صوننكي وهو سالومبو سواري Saalumbu Suwaaré (قبل مجيء الكيلوار)، وبذلك أصبحت المنطقة بأكملها يُطلق عليها اسم سالوم نسبة إلى هذا الفقيه.

القبيلة بين الاستقرار والترحال، وفيما يلي نقدم نموذجاً من الأنظمة التي كانت تحكمُ مسار حياتها:

أ ــــــ نظام اللمنة (Lamant):

كان نظام اللمنة هو السائد في المجتمع الولوفي إلى حدود ظهور النظام الملكي في القرن الثاني عشر الهجري (18م)، وقد ذهب جان بوليك (J Boulégue.)، إلى أنّ هذا النظام ارتبط وجوده بالهجرات المختلفة التي وقعت فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلادي، (الصوصو، والسرير، والفولان)[22]، فهو عبارة عن تجمعات زراعية، على رأس كلٍ منها يوجد اللمن،[23] الذي كان يمارس سلطته بمساعدة مجلس الشيوخ،[24] ويقوم بكل المهام المرتبطة بالجماعة، التي هي في مجملها ثلاثة: دينية، وسياسية، وعقارية، حيث كان يملك صلاحية اتخاذ قرارات ذات صلة بقيادة الجماعة وتنظيمها وعملها، كما كان يسهر على إقامة العدل.[25]

وبالنظر إلى السلطات الواسعة التي كان يخولها له هذا النظام، فقد كان يوزع الإقطاعات على مختلف الأسر المكونة للجماعة، ومن ثم جباية الضرائب المفروضة عليها.

---

[22]- Boulégue (J.). 1987, Le grand Jolof :XIIIe-XVIe siècle, Blois: Ed. Façades, p. 55.

[23]ـ للإشارة فإن بعض القبائل، كان لها هي الأخرى زعماء يتحكمون في مسار حياتها. من بين الأمثلة على ذلك نجد:

ـ أردو **(Ardo) عند الفلان**: وهو الزعيم الذي يقوم بقيادة القبيلة في ترحالها، ويُسمى بذلك، زعيم الطريقة.

ـ **فاربا (Farba) عند التكرور**: وهو زعيم يقوم بإدارة أرض الجماعة.

[24]- La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p. 61.

[25] – Ibidem, pp.61 - 62.

ومن الملاحظ، أنَّ هذا النظام تحول بشكل تدريجي إلى تنظيم سياسي في أماكن متعددة من السنغال؛ وبذلك أصبح اللمن زعيماً سياسياً، ارتبطت سلطته بالمجال العقاري الجماعي، ويبرز ذلك بشكل واضح في مجتمع الولوف، حيث أضحى له مساعدون في مهامه الجديدة، يطلق عليهم لمن روك (Laman- roq)[26]، وقد أُنيطت بهم مهام متعددة؛ مثل:

® تحديد المساحات الزراعية.

® تحصيل الضرائب العقارية لصالح اللمن الأكبر، الذي أصبح يحمل لقب لمن ديخا (Laman jaxan).[27]

مُعطى القول، تبين لنا منْ خلال ما سبق ذكره، أنَّ بلاد الولوف عرفت عدة كيانات سياسية يأتي على رأسها زعماء يطلق عليهم لمن (Laman)، كانت وظيفتهم الأساسية الإشراف المباشر على الأرض، لتتطور فيما بعد إلى ممارسة السلطة السياسية.

ولقد أثبتت الدراسات الحديثة التي تناولت تلك الفترة بالبحث، أنَّ هذا النظام استمر قائماً بعد إنشاء إمبراطورية جولوف، كما أنه ظل قائماً بعد قيام مملكة الكيلوار في سين وسالوم.[28]

ب ــــ النظام الملكي:

يمكننا القول، إنَّ النظام الملكي في معظم الممالك السنغالية هو من نوع "أوليغاريشي" إنْ صح التعبير، مرتبط بمفهوم الأسرة التي تتبع النظام السُلالي في التولية.

26_ لمن روك (Laman- roq): هو منفذ للأوامر.

27 _ هو المسؤول أو الزعيم المسؤول.

28 - Diagne, (P.), 2010, L'Afrique, enjeu de l'histoire: afro centrisme, eurocentrisme, sémitocentrisme, L'Harmattan.

ولما كان نظام الوراثة يرتكز على العلاقات الأمومية التي تنقل الوريث إلى السلطة عن طريق "الإرث البيولوجي"، فإنَّ الأسرة من جهة الأم غالباً ما كانت تتحكم في الحياة السياسية لممالك الولوف. كما يمكن أنْ نضيف أيضاً، أنَّ مسألة النظام السُلالي في بعض الممالك يمكن أنْ تكون نتيجة اتفاق بين طبقة عسكرية غازية من أصل أجنبي، وطبقة ارستقراطية هي التي تزوج بناتها لتحتفظ لنفسها ببعض السلطة وإضفاء نوع من الشرعية على السلطة السياسية الجديدة، كما هو الحال في أسرة الكيلوار (Gelowaar) في مملكتي سين و في سالوم.[29]

فكيف إذّا كان يتم اختيار الملك داخل هذه الفئة؟

رأينا فيما تقدم، أنَّ وريث السلطة السياسية في مجتمع الولوف، يجب أنْ ينحدر من أسرة تنتمي إلى الملك الأول أو مؤسس الملكية.

كان الملك يختار من طرف مجلس المنتخبين[30]، اختلفت تركيبته حسب الممالك الولوفية (كايور، و والو، و جولوف): ففي مملكة جولوف ـــ على سبيل المثال ـــ كان هذا المجلس يتألف من سبعة أعضاء، ينتمون إلى فئة كارمي (Garmi)، ويترأسه شخص يُسمى جارفو جامبور (Jaraffu Jambur)، وفي كايور يترأس هذا المجلس والذي يُدعى وارو (Wareau)، الشخص نفسه، ويضم بالإضافة إلى ذلك، ممثلي فئات الأحرار والحرفيين. أما في والو، فالأمر يختلف، بحيث يتكون المجلس والذي يُسمى سيب آك باور (Seb Ak Baor)، من اللمن وممثل العبيد (Jawdin)، وزعيم الماء (Ejogomay)، وأمين المال أو الصندوق (Mala).[31]

---

[29] - Barry (B.), La Sénégambie du XVe au XIXe siégle., p. 59.

[30] - يكون أعضاء هذا المجلس معينين من قبل مجموعات سابقين، أو من قبل مجلس الشيوخ.

[31] - Barry (B.), La Sénégambie du XVe au XIXe siégle., p.94.

ولنا أنْ نتساءل هنا، عن المهام التي كان يضطلع بها هذا المجلس بالإضافة إلى كيفية اختيار وريث العرش. وفي هذا الباب، يمكننا تحديد مهام مجلس المنتخبين بأمرين، هما:

1. مشاركة الملك في اتخاذ القرارات الهامة التي تتعلق بالمملكة.
2. تمتعه بصلاحية إقالة الملك من منصبه في حالة الإخلال بمسؤولياته، إلا أنَّ ذلك لا يتم إلا في حالات نادرة جداً.

وقد ألمحنا في سياق حديثنا عن نظام اللمنة، أنَّ اللمن قد تحول مع مرور الزمن إلى زعيم سياسي، يتضح ذلك في كون هؤلاء الزعماء أصبحوا يُشكلون في النظام الملكي، الزعامات المحلية التي تشارك الجهاز السلطوي في تسيير الشؤون الداخلية للأقاليم. وأصبحت لحُكام الأقاليم سلطات واسعة وحرية في تسيير شؤون مناطقهم، ولكي يضمن الجهاز الحاكم ولاءهم أبقى على امتيازاتهم القديمة، خاصة تسيير المجال العقاري، لكن انتزع منهم الحقوق السياسية، ليصبحوا إما أعضاء في المجلس الانتخابي، أو وسيلة لتنفيذ قرارات وأوامر الملك.[32]

وقبل أنْ نختم حديثنا عن التركيبة السياسية وعلاقتها بالفئات الاجتماعية، نريد الإجابة هنا على سؤال عام غاية في الأهمية، وهو:

هل عرفت إفريقيا جنوب الصحراء نمط الدولة المركزية قبل الاستعمار الأوروبي؟ أم أنَّ الاحتلال هو الذي أقام الدولة وأنشأها ؟

بالرغم من وجود نظريات عديدة لنشأة الدولة، كالنظرية الثيوقراطية المرتبطة بالدين وبتفرعاتها عبر نظرية الحق الإلهي المباشر وغير المباشر، والنظريات المادية المرتبطة بالبشر وبتفرعاتها عبر نظرية القوة ونظرية

---

32 - Yves- Jean Saint- Martin,1989, Le Sénégal Sous le second empire: naissance d'un empire colonial, 1850-1871, Paris, Karthala, p. 61.

الأسرى ونظرية العقد الاجتماعي، إلا أنَّ هناك خلافات كثيرة حول وجود أو عدم وجود دولة في إفريقيا جنوب الصحراء في فترة ما قبل المرحلة الاستعمارية؛ حيث اختلفت التفسيرات في هذا الشأن، ما بين قائلين بالتفسيرات النظرية؛ أي تلك التي ترى وجوداً للنزعة المركزية الإفريقية، ونمطاً لجماعات الصيد والجماعات البشرية المنقسمة والدولة البدائية، وما بين الآخذين بالتفسيرات الموضوعية التي تتبنى رأيين: أحدهما نمط نظم اللادولة، مستشهدين بجماعات الصيد والأسر الممتدة والنظام المشتت العام والكلاسيكي، والقائم على تراتب الطقوس الدينية. والآخر، نمط نظام الدولة، والذي يستشهد بوجود زعيم ومؤسسات سياسية ومجلس للكبار، ومن وظائفه الموافقة على ترشيح الملك، وإسداء النصح، والموافقة على القوانين واستقبال الزوار.

بناء على ما تقدم من معطيات فضلا عن طريقة اختيار الملك وتحديد وظائفه ثم منع إساءته للسلطة، كل ذلك يدلل لدى أصحاب التوجه الأخير على هذا الوجود القديم للدولة في إفريقيا.[33]

وجدير بالذكر هنا، أنَّ البعض قال بوجود ثلاثة أنواع للدولة في إفريقيا قبل الاستعمار: الأول، نمط الدولة الأولية الرعوية الزراعية والحرفية، والثاني، نمط الدولة العسكرية التجارية في مرحلة تجارة الصحراء. والثالث، نمط الدولة المفترسة في عصر تجارة الرقيق.

ويؤكد كثير من مؤرخي إفريقيا المحليين أنّه كان لإفريقيا ماضٍ ذو مغزى قبل مجيء الأوروبيين بوقت طويل. وأكدوا بأنَّ الإفريقيين ظلوا يصنعون تاريخهم لوقت طويل قبل أنْ يتصلوا بأوروبا. وهناك من يرى بأنَّ

---

[33] ـ حسن حميدي عبد الرحيم، 2002، دراسات في النظم السياسية الإفريقية، سلسلة الكتب الدراسية، جامعة القاهرة، ص. 29.

فضل إقامة دولة في إفريقيا إنما يرجع للأوروبيين بعد اتصالهم بالقارة عن طريق تجارة الرقيق والذهب والعاج.

ويرى أحد المؤرخين أنَّ أغلبية الشعوب الإفريقية لم تُشكل دولاً بالمعنى الحقيقي للكلمة، لأنه لم يكن بها طبقات، وأنَّ الدولة والطبقات الموجودة بها، لم توجد إلا في حالة جنينية قبل وصول الأوروبيين. لكن البعض يقول بأنَّ التأثير الخارجي ظلّ مقتصراً على السواحل فقط حتى عام 1885م. وأنَّ هذا التأثير انحرف في جوانب مختلفة، لكنه لم يمس الجهاز العسكري والأيدلوجي.[34]

معطى القول، عرفت إفريقيا العديد من النظم السياسية قبل الاستعمار، ومع أنّه لا توجد دساتير مكتوبة تقر بهذا الأمر وتؤكده، إلا أنَّ ممارسة الحياة اليومية لدولها في تلك الفترة، قد اعتمدت على الأعراف التي شاهدها الأوروبيون وكتبوا عنها.

لذا فإنَّ المجالات الإفريقية لم تنتظر الأوروبيين حتى يأتوا إليها في القرن 19م ويُعلِموها شكل الدولة ونظمها؛ فقد نهضت ببلاد السودان سلطنات وممالك إسلامية يشهد عليها التاريخ في الفترة ما بين القرن 10 و18م؛ نذكر منها غانة ومالي وماسينا وسنغاي وكانم بورنو في السودان الغربي والأوسط، ثم هناك سلطنات دارفور وكونج في السودان الشرقي. وكل هذه الممالك والسلطنات، برزت بها مدن ومراكز إسلامية، كجني وتنبكت وأغاديس وكانو وزاريا انتهاءً بسنار ودنقلة وسواكن.

وفي هذا الإطار، أشار المؤرخون الغربيون إلى دور العلماء العرب في المعلومات التي أوردوها عن مدن وممالك بلاد السودان، وعن الإدارات

---

[34] ـ أحمد عبد الدايم، 2013، تاريخ إفريقيا الاقتصادي في عصر ما قبل الاستعمار، منشورات وحدة الإعلام والتوعية بالشؤون الإفريقية، معهد الدراسات الإفريقية، القاهرة، ص. 36.

الجيدة، والنظم المعقدة الخاصة بالضرائب والتجارة، وكيف تخطى هذا التنظيم الاقتصادي والتجاري حدود المملكة المكتفية ذاتياً، ليتعدى حدود المجتمع القبلي، ولينظم حياة سكان المنطقة جميعاً ويحكمهم.

إنَّ مجموع المعطات التاريخية التي طرحناها تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنَّ إفريقيا جنوب الصحراء، خاصة منطقة دراستنا، تعرف على نظام الدولة ومؤسساتها قبل اتصالها بالأوروبيين خلال المرحلة الاستعمارية.

5- الأسس المادية لحياة الناس الاقتصادية:

تمثل الزراعة عماد الاقتصاد السنغالي، وتتركز في النطاق الغربي من البلاد، وتمارس جماعات الولوف والسرير زراعة الذرة الرفيعة للاستهلاك المحلي، والفول السوداني كمحصول نقدي للتصدير، وتعتبر من أهم الصادرات، ويزرع بكميات كبيرة، جعلت من السنغال رابع دولة منتجة له على المستوى العالمي، وكان لهذا المحصول أثره في جذب أيدٍ عاملة معظمها من غينيا، ومالي، للعمل الموسمي في زراعته، وحصاده ، وتقوم السنغال بعصر معظم المحصول ثم تصديره إلى الخارج.[35]

كما شهدت السنغال زراعة الأرز في منطقة رتشارد تول (Richard tool) على نهر السنغال، وفي دلتاه، وفي وادي كازامنس الأدنى، وكذلك نجد زراعة القطن في المناطق الداخلية. كذلك شهدت المناطق المجاورة للمدن الكبرى، وفي إقليم كيب فرد زراعة الخضروات التي بدأت تجد طريقها كصادرات نحو أوروبا، وبعض الدول الإفريقية.

---

[35] ــــ فتحي محمد أبو عيانة ، 1983، جغرافية إفريقية (دراسة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول جنوب إفريقيا) الإسكندرية. دار الجامعات المصرية ، ص. 250 .

بالإضافة إلى الصمغ الذي بلغت فيه السنغال شهرة عظيمة، بل ذهب بعض المؤرخين أمثال Hardy، والذي يرى أن كل الإثراء الذي تتمتع به السنغال كان من وراء الصمغ الذي أصبح العمود الفقري للصناعة والتجارة.[36]

وكما قد شهدت السنغال صناعة مبكرة معتمدة على استخراج زيت الفول السوداني؛ ساعد على ذلك وجود أسواق مضمونة، وبأسعار مرتفعة ممثلة في السوق الفرنسية، وقد شهدت هذه الصناعة دفعة قوية أثناء الحرب العالمية الثانية عندما توقف استيراد زيت الوقود، وحل محلها زيت الفول السوداني.

ويوجد في داكار مصنع للسكر، وآخر لصناعة الحبال ، والجوالات من السيسل المستورد، وكما توجد ثلاثة مصانع للنسيج التي تعتمد على القطن المحلي، وتوجد في العاصمة أيضاً بعض المصانع للصناعات الكيماوية، وينتج أحد المصانع الكبريت، كما ينتج آخر الغازات السائلة، والبطاريات. ولكن لا يمكن اعتبار كل هذه المصانع كافية لسد حاجة الاستهلاك المحلي، فضلاً عن أن تكون ذات أثر في اقتصاديات البلاد.

وأما المواصلات؛ فيوجد 652 ميلاً من الطرق البرية الصالحة لكل الأجواء، بالإضافة إلى عدة طرق ممهدة في داخل البلاد.

---

36 – Georges(H). 1921. La mise en valeur du Sénégal du 1817 – 1584. Paris : Maisonneuve et Larose. P 255.

الفصل الثاني

مراحل انتشار الدين الإسلام وتغلغله في السنغال

إذا كان من السهل الحديث عن تاريخ بداية نشأة الإسلام في السنغال، فإنه من الصعب القول بأنّ تلك النشأة قد انتهت ورست خلال مرحلة تاريخية معينة، أو أنَّ حركة الدعوة إلى هذا الدين قد أكملت دورها ووضعت أوزارها، ذلك أنَّ الإسلام لا زال ـــ وسيظل ـــ ينتشر يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة، وقرناً بعد قرن، وهكذا إلى أن تقوم الساعة، ألم يقل موريبا ماكاسوبا (M. Magassiuba) في هذا الإطار: "..إنَّ **عدد مسلمي السنغال في ارتفاع مستمر، وأنَّ المساجد تزداد هناك يوماً بعد يوم وسط الأحياء السكنية، وأنَّ الإسلام ينتشر بالتدريج عن طريق التجارة والاتصال والحوار والزواج**"،[37] ثمَّ ألم يقل المؤرخ الفرنسي فنسان مونتاي: "..إنَّ **الإسلام يبقى ديناً حيّاً ديناميكيّاً ينتشر باستمرار ولا شيء يقف في وجهه**".[38]

وما كان أيضاً لهذا الدين الحنيف أنْ يستمرَّ ويصمُدَ، بل ويتوطَّد ويتجذَّر طيلةَ القرون الماضية، لولا أن أهالي السنغال أنفسَهم، على اختلاف أعراقهم وقومياتهم، قد أقبلوا عليه بمحض إرادتهم ورغبتهم، وأحاطوه بحبِّهم ونصَروه بسيوفهم، وأسكنوه في أعماق قلوبهم وجوارحهم، كما سيتبين لنا في هذا الفصل.

---

[37]-Magassiuba(M), **1985, L'islam au Sénégal, demain les Mollahs ? la question musulmane et les partis politiques au Sénégal de 1946 à nos jours,** Paris: Karthala.

[38] ـــ فنسان مونتاي. 1983. الإسلام في إفريقيا السوداء. بيروت. دار أبعاد، ص. 375.

صيرورة انتشار الإسلام في السنغال

يعتبر موضوع انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من أهم الموضوعات التي شهدها هذا الجزء، حيث ترتب عليه نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية غيرت تغييراً شاملاً البنية والسمات العامة التي كانت عليها القارة من قبل. وأصبح الإسلام ظاهرة لها ثقلها الاجتماعي والسياسي.

وعن دور الإسلام في حياة الشعوب الإفريقية نستحضر ما قاله الرحالة ميك (Meek): "جاء الإسلام بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية الإفريقية طابعاً حضارياً متميزاً لا زال واضحاً حتى اليوم مؤثرا في نظمهم السياسية والاجتماعية، وذلك وأن الإسلام حمل الحضارة إلى القبائل وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة شعوبا، وجعل تجارتها مع العالم الخارجي ميسورة، فقد وسع من الأفق ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعي أرقى، حيث أتاح للزنجي لأن يصبح مواطنا حُراً في عالم حر".[39]

كما أن حركة انتشار الإسلام وما أحدثه من تغيرات جوهرية في السنغال كانت مثار اهتمام وجدال وحوار بين المؤرخين والمهتمين بالدارسات الإفريقية، وقد تعددت هذه الآراء واختلفت، فمنها تلك التي تحاملت على هذه الحركة، حيث اتفقت معظم آرائهم على عملية نشر الإسلام في إفريقيا ـ بما فيها منطقة دراستنا ـ قد تم بحد السيف والإكراه، واقتصر الإسلام على المدن دون القرى، وعلى الطبقة الحاكمة دون بقية الرعية. إذن، هنا خلق مشكلاً اجتماعياً وسياسياً، ذلك أنه باعد ما بين الحاكم والرعية. ومن الدراسات ما تقع على النقيض من ذلك. وحتى نتمكن من استجلاء هذا الأمر،

---

[39] - Meek, Charles Kingsley, 1925, Northern Tribes of Nigeria, Oxford University Pres,p. 1-3.

وحتى نتمكن من إعطاء هذا الموضوع حقه من الدراسة والبحث والتمحيص، لا بد من إلقاء الضوء على معظم جوانبه، خاصة العوامل التي اعتمد عليها الإسلام في منطقة السنغال.

وهمنا الأساسي في هذه الدراسة، هو أن نفهم ونتفهم واقع الإسلام ببلاد السنغال كما تطرحه وتستنبطه المصادر، وليس تأكيد إخفاقه أو نجاحه.

وتسهيلا للدارسة والبحث في هذا الموضوع، فإننا أثرنا تقسيمه إلى ثلاثة عوامل رئيسية، وهي في واقع الأمر عناصر متداخلة لا غنى لإحداها على الآخر.

أولاً- العوامل الذاتية:

العوامل الذاتية هي تلك التي ترتبط بالإسلام كدين، وعقيدة، ومنهج وسلوك. وهي بطبيعتها تمثل الجانب الأساسي والمهم التي تتمحور حوله بقية أو غالبية العوامل الأخرى، فالدين الإسلامي في جوهره يحمل الكثير من الخصائص والسمات المتميزة التي تتعلق بحياة الإنسان، وتخاطب مباشرة عقله ووجدانه، كما أنه يتعلق بسلوكه و حياته اليومية، لذا فإن كل ما جاء به الإسلام من خلال النصوص القرآنية الواضحة أو من خلال السنة النبوية أو سلوكيات الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والمسلمون الأوائل كل ذلك كان له تأثيره المباشر في عملية انتشار الإسلام، سواء في شبه الجزيرة العربية أو المناطق الإسلامية الأخرى من آسيا وإفريقيا.

لقد اشتمل الإسلام على مجموعة من المبادئ التي تتعلق بالعقيدة والإيمان والسلوك، وكما أقرَ الإسلام المبدأ المميز والواضح وهو ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ

بهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ}[40]، وهذا المبدأ لو توقفنا عنده قليلاً وفكرنا جيدا في مضمونه و دلالاته لاكتشفنا بأنه المبدأ الأساسي والهام بين كل المبادئ الذاتية الأخرى التي تميز بها هذا الدين، وكان له تأثيره الواضح في عملية انتشاره ورسوخه. فالإسلام أقر حرية الفرد، في تفكيره و معتقده لأن الله ميز هذا الإنسان بنعمة و خاصية عن سائر الكائنات وهي العقل الذي به يستطيع أن يميز بين الخير والشر، فجاء الانخراط في الإسلام سهلاً و دون إكراه.

ومنذ انتشار الإسلام المبكر تجسد هذا المبدأ وكانت أوامر و تعاليم الله إلى نبيه: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ}. ناهيك عن العديد من الآيات والأحاديث التي تؤكد على هذا المبدأ الصريح، لذا نرى أن أهالي السنغال عندما تعاملوا مع الإسلام أدركوا هذا الجانب واقتنعوا بأنه دين سلم و قناعة وحرية، وليس دين تعسف

كما أقر الإسلام مبدأ العدالة بين الأفراد في الحقوق والواجبات بصرف النظر عن مراكزهم الاجتماعية أو الاقتصادية أيا كان شكلها أو حجمها فالناس في الإسلام سواسية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ).[41]

ومن العوامل الذاتية الهامة التي تميز بها الإسلام معالجته للجوانب الاقتصادية التي تتعلق بحياة الفرد والجماعة، حيث اعتادت المجتمعات القديمة و منها بطبيعة الحال مجتمع السنغال على حياة تخالف في جوهرها تلك التي نادى بها الإسلام الذي أقر مبدأ اقتصادي تعاوني هام حيث فرض الله الزكاة وجعلها ركنا أساسيا من أركان هذا الدين، وهذا إقرار بحق الفرد على غيره وحقوق الغير على هذا الفرد. [42]

---

[40] ـــ سورة الكهف، الآية 29.

[41] ـ سورة الحجرات، الأية 13.

[42] - عطية مخزوم الفيتوري، 1988، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء(مرحلة انتشار الإسلام)، بنغازي، منشورات جامعة قار يونس، ط. 1، ص. 99.

كما إن الإسلام بذاته يدعوا إلى الطهارة والنظافة، فالصلاة مظهراً جوهريا يتعلق بكيان و سلوك الشخص. فيبين لنا العديد من أصحاب مصادرنا مدى حرص أهل مالي لهذه العقيدة فيقول ابن بطوطة: "**فمن أعمالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم، و مواظبتهم للصلوات، والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة، ولم يبكر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام..**".[43]

معطى القول، إن الإسلام اشتمل على العديد من السمات والخصائص الذاتية التي تتعلق به كدين، وهي كما أشرنا المرتكز الأول في حركة انتشاره، والمحور الأساسي في إقناع الآخرين وقناعتهم به كدين سماوي خاتم لكافة الأديان.

ثانياً ـــ العوامل الخارجية:

يمكننا تقسيم العوامل الخارجية التي ساعدت على حركة انتشار الإسلام في المنطقة إلى جزأين رئيسيين وهما:

أ- العوامل الخارجية المتعلقة بالعامل الذاتي.

ب - العوامل الخارجية الصرفة.

أ- العوامل الخارجية المتعلقة بالعامل الذاتي:

نقصد بهذه العوامل الأفراد أو الجماعات أو المؤسسات وغيرها التي ساهمت في نشر الإسلام والدعوة إليه في منطقة السنغال، وتجسيد العوامل الذاتية الأنفة الذكر على الأرض الإفريقية فكانت بمثابة صورة حية مترجمة

[43] - ابن بطوطة، 2009، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد الرحيم، دمشق، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ص. 372.

لهذه العوامل قولاً وفعلاً. ويأتي في مقدمة هذه الفئات فئة التجار، ثم يليهم الدعاة، والرباطات، والزعامات الدينية والسياسية. ونحن بدورنا سنقوم بعرض الأدوار التي قامت بها هذه الفئات لنشر وتقعيد الرسالة المحمدية على الأرض السنغالية. فلنبدأ أولا بدور التجار.

– **دور التجار:** ما كاد القرن الخامس الهجري ينتصف، حتى ظهر عدد من الإمارات المسلمة في قلب بلاد السنغال. وكان حضور الإسلام آنذاك، مثل الواحات في الصحراء، لا يتعدى حدود الإمارة، وقد يقتصر على الأمير السنغالي وحاشيته دون بقية رعيته أو بالعكس. و لم يكن أبو عبيد البكري الذي انتهى من تسويد مؤلفه سنة 1068م- وهو يدون لنا الحدث بروح جغرافية – قادراً على استيعاب مقدمات الحدث أو التنبؤ بمصير هذه الحالة الجنينية.

ولقد استلزم حضور الإسلام إلى المنطقة بهذا الشكل البسيط غير الكثيف، زمناً يزيد على القرنين، لم تتوقف خلاله العلاقات والتفاعلات البشرية بين السنغاليين والمسلمين الآتين من الشمال. [44]

فكثيرا ما تقابلنا عبارات تفيد بوجود صلة قوية و تزامن بين التجارة و انتشار الدعوة الإسلامية، بأبعادها الروحية والثقافية والحضارية، في البلدان التي لم تصلها جيوش الفتح العربي الإسلامي، ومن تلك البلدان منطقتنا المدروسة. فكيف تمثل دور التاجر في نقل هذا الدين إلى الوسط الاجتماعي؟ وكيف تفاعلت معه فئات الشعب وخاصة وأن معظمها تدين بالوثنية؟.

لقد كان للعرب قبل الإسلام علاقات تجارية مع إفريقيا وكانت بعض القبائل تقوم بهذه التجارة عبر الصحراء منذ أمد بعيد وتطورت هذه التجارة و

---

[44] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي 1230–1430م، أبو ظبي، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، ص 81.

أصبحت هناك صلات تجارية كبيرة و منظمة وفي نشاط متزايد بين أطراف هذه القارة شمالها وجنوبها، وعن طريق الهجرة وتجارة القوافل.

تلك القوافل التي كانت تأتي من الشمال الإفريقي[45] ومصر وشبه الجزيرة العربية وفي مواسم مختلفة ناقلة إلى السنغال ما تحتاج إليه من هذه المناطق، وتعود محملة بالبضائع السنغالية الرائجة في أسواق المغرب والمشرق العربيين. وقد ألفت إفريقيا جنوب الصحراء هؤلاء التجار في مرحلة ما قبل انتشار الإسلام، وتعمقت هذه الصلات مع دخول الأفارقة بالدين الحنيف. فالنصوص التاريخية تشهد على ذلك، فهذا ابن حوقل يبين لنا قدم العلاقات التجارية بين المنطقتين، وكما يطلعنا على دور التجار في نشر الرسالة المحمدية فيقول: "**عرف العرب التجارة مع إفريقيا منذ أمد بعيد ولما ظهر الإسلام و أصبح التاجر مسلما زاد النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها كما زاد النشاط الذي كان يقوم به العرب فقد عني المسلمون بالطرق والأمن و حددوا المكاييل والموازين ، وأشاع التاجر المسلم حوله جوا من الثقة فوجد ترحاباً أينما حل، وأصبح بيته منارة للفكر الإسلامي بما يحمله من مدنية وحضارة، فهيأ ذلك للإسلام فرصة الانتشار مع التجارة**". [46]

وكان التاجر المسلم بسلوكه وخبرته بالناس وخلقه الإسلامي ما جعله محل ثقة الأفارقة، ووفر له ذلك القبول الحسن لديهم، وما أن يدخل هذا التاجر قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام صلاته وعبادته، فضلاً عما يتحلى به من سمو عقلي وسلوك حضاري يفرض

---

45 - نذكر من أهم المواد التي كانت تصدرها منطقة الشمال الإفريقية إلى الجنوب: الملح والمنسوجات والحلي، و كما هناك مواد سودانية يحتاجها الشمال الإفريقي مثل: الذهب و الأخشاب و جلود الحيوانات.

46 - ابن حوقل، 1979، صورة الأرض، بيروت: مكتبة الحياة، ص. 99.

الاحترام والثقة به على الوثنيين و يجذبهم إلى الاقتداء به وتقليده. كما كان هؤلاء التجار في هذه الأصقاع يحملون مع بضائعهم العقيدة الإسلامية والمعارف الأساسية لها، وكانوا يعملون بمختلف الوسائل عن نشر الإسلام و ترويجه بين الوثنيين.[47]

على ضوء ما تقدم، يبقى السؤال الذي يفرض نفسه: كيف يمكننا أن نتصور ونتفهم ما تصوره لنا معظم الكتابات عن دور التاجر الريادي بنشر الإسلام، دون التطرق إلى الصعوبات التي اعترضته، وخاصة وأن المنطقة كانت تدين بالوثنية، وأن تغيير الإنسان لعقيدته ليس بالأمر السهل.

ـــ دور الدعاة:

ليس هناك اختلاف كبير بين التاجر والداعي والفرق البسيط بينهما هو أن التاجر يهتم بالتجارة والدعوة معاً، أما الداعي فكان اهتمامه الأول هو الدعوة إلى الدين الحنيف. وكانت غالبية التجار لا تجيد الفقه والفكر الإسلامي وليس منهم من يستطيع التفرغ لذلك، لذا نجد الكثير من هؤلاء يستقدمون العلماء والفقهاء لتعليم وتثقيف الناس بأمور دينهم ودنياهم وشرح ما يستوجب شرحه لهم فأصبحوا دعاة لهذا الدين وكان بعض هؤلاء يقومون بتشييد المدارس وإنشاء المساجد وكثيراً ما كانوا يختارون الطلاب المميزين لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة في المشرق العربي أو الشمال الإفريقي.[48]

ويبقى وصف البكري لمدينة غانة، نموذجاً وشهادة فريدة عن تعايش المسلمين والسودانيين، كما يدلنا على دينامية الفقهاء في نشر الإسلام، ورغبة

---

[47] - الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء،م.س ، ص. 104.
[48] - الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا و جنوب الصحراء، م.س ، ص. 105.

أهل غانا بالتعرف على هذا الدين الحنيف. يقول جغرافينا: **"ومدينة غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا[49] أحدهما يجتمعون فيه ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وطلبة علم...، ومدينة الملك على مسافة ستة أميال(11كم) من هذه وتسمى الغابة والمساكن بينها متصلة...، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين"**[50]

وإذا كانت الظروف قد ساعدت على استقرار المسلمين في العاصمة وغيرها، فإن مدناً ومناطق أخرى، لم تعرف الوضعية نفسها، بيد أن أهاليها ينظرون إلى المسلمين من ظهرانيهم. و كما كان لانتظام المسالك التجارية بين ضفتي الصحراء أثر بالغ في تحقيق تحول المجتمع السنغالي إلى الإسلام. ذلك أنه ساعد ومهد السبيل أمام الفقهاء والدعاة المسلمين لارتياد المراكز السنغالية بهدف نشر الدعوة الإسلامية. إلا أن قلة الدعاة وجهلهم بمناطق البلاد و أحوالها فضلاً عن اختلاف لغة التواصل، حدّ من فعاليتهم وأعاق مهمتهم؛ الشي الذي يفسر انتشار الإسلام في بداية أمره على بعض الحواضر السنغالية وهوامشها. وبالتالي كان التوزيع الجغرافي للتجمعات الإسلامية في تلك المنطقة يتتبع المحطات التجارية الكبرى بها، وعلى امتداد مسالك نقل الذهب والكولا و الملح. [51]

---

[49] - تدلنا الاختبارات الأركيولوجية على أن أقدم المساجد في غانا العاصمة تعود إلى نهاية القرن9م. أنظر:

- Cuoq Joseph, 1984, Histoire de L' Islamisation de L'Afrique de l' Ouest des origines a la fin du XVIe Siècle ,Paris : Libraire orientaliste Paul Genthner , P. 43.

[50] - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، م.س، ص. 175.

[51] - Mauny (R). 1961, Tableau géographique de l'Ouest Africain au Moyen- Age, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, Mémoire de l'IFAN, n61, Dakar, P 225 et 226.

ومهما يكن من الأمر، علينا أن لا نتغافل دور العامل الزمني في قلب الأفكار والمعتقدات، وأن نقدر هذا المعطى في معالجة القضية. وهذه الوضعية لصيرورة مسيرة الإسلام في المنطقة يمكن أن نسميها بمرحلة التمثلات الجنينية للإسلام، هذا الوضع الذي سيشهد تغييرا كبيرا في تقبل و تقعيد الإسلام في المجتمع السنغالي مع القرنين 11 و 12م.

ـــ الحج:

كان الحج ومازال من أهم العوامل التي تيسر للمسلمين على اختلاف أقطارهم فريضة الالتقاء والتبادل الحضاري والثقافي. ومن خلال دراسة سريعة لبعض المصادر العربية، يتبين لنا حرص سلاطين الدول الإسلامية بمنطقة السنغال عموما على أداء هذه الفريضة رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق لطول الطريق ووعورته[52]. والتي أصبحت وسيلة من وسائل نشر العقيدة الإسلامية والثقافة العربية في المنطقة.

وكانت الرحلة التي يقطعها الحاج بالغة الأثر في نفسه فقد كانت هذه الرحلة تشعر الإفريقي بالأخوة التي تربط بين جميع المسلمين، وتحطم كل الفواصل الاجتماعية والقبلية. وكما يقول المستشرق ترمنجهام

[52]- كان هناك طرق معروفة يسلكها الحجاج في طريقهم إلى الحجاز ومنها: أ- طريق من الداخل عبر الصحراء صوب الشمال حتى ساحل البحر المتوسط ثم الاتجاه شرقا صوب مصر ومنها عبر البحر الأحمر فصوب الحجاز. ب- الطريق الثاني يتجه شرقا إلى السودان الشرقي ثم ساحل البحر الأحمر فالحجاز. وهذا الطريق غالبا لم يكن مأمونا كان المسافر فيه يتعرض للنهب بالإضافة إلى الحروب الداخلية والاضطرابات. راجع: أحمد فتوح، " الحواضر الإسلامية بغرب إفريقيا في القرنين 16 و 17م تاريخها السياسي والحضاري والاقتصادي"، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، 1989، ص 25.

(Trimingham): "إن شعورا بأن الإسلام ديانة الأفارقة جميعا كان يمتلك المسافرين برحلة الحج"[53]

ومعروف أن رحلات الحج أدت دورا كبيرا في استمرارية التواصل الثقافي بين بلاد المشرق العربي وبلاد السنغال، وظلت قوافل الحج قنوات تنساب عبرها السلع والأفكار. وكان حجيج منطقتنا يشعرون بأهمية إطلاعهم على كل ما يجري في تلك البقاع من أحداث، وما يدرس فيها من علوم، وبالتالي اقترنت رحلات الحج بالعلم فكان الحجاج يعودون وقد أدوا فريضتهم الدينية، ينهلون من صفوف العلم المختلفة، وتلقوا إجازات وتحصلوا على ما لم يطلعوا عليه من قبل من تأليف علمية في مختلف المجالات، وبالجملة فإنهم يطبقون ما دعت إله الآية الكريمة في قوله تعالى: (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ الله)[54].

وعند الحديث عن الحج كوسيلة من وسائل نشر الإسلام تجدر الإشارة إلى بعض الرحلات خلال فترة الدراسة[55]، ومن هذه الرحلات: رحلة الأسكيا

---

[53] - Trimingham, (J.S) , Islam in West Africa, Oxford, P. 89.

[54]- سورة الحج : الآية رقم 28.

[55]- ولعل من أهم مشاهد ركب الحجاج السودانيين وفد الحجاج الذي كان على رأسه السلطان منسى موسى (1312 – 1337م) سلطان مالي، والذي قيل أنه كان يضم أكثر من عشرة آلاف حاج وقد مر بمصر في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلوون، وقد تحدث المؤرخون عن هذا الركب، حيث أحاط السلطان نفسه بمظاهر من الترف وحمل معه كميات كبيرة من الذهب الخام. ولا نعرف مدى خرج الموكب السلطاني من مالي بإتجاه الحجاز على تأكيد وصوله إلى مصر عام 1324م. ويتبين لنا من هذه الرحلة، إصرار و إلحاح الحجاج السودانيين على أداء هذا الركن الإسلامي، على الرغم من حداثة عهدهم وبعدهم عن الحجاز. مما أفضى على رحلاتهم الحجية حلة فريدة ومتميزة، الشيء الذي لم نعهده لدى الأسر الحاكمة في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط. - راجع: ابن خلدون، العبر، ج6، م.س، ص416. أحمد بن علي المقريزي، 2009، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك والخلفاء، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص 12.

محمد الكبير إلى الحج عام 902-903هـ/ 1496-1495. اتخذت هذه الرحلة مظهرا ثقافيا وكان لها عميق الأثر بنشر الإسلام والثقافة العربية، لاصطحابه أهم وابرز علماء مملكة سنغاي[56]. الذين أدوا بعد عودتهم دورا بارزا في ترسيخ قيم ومفاهيم العقيدة الإسلامية، كما أن الأسكيا نفسه استفاد من هذه الرحلة والاتصالات الواسعة التي أجراها مع العلماء والفقهاء في مصر والحجاز. وقد انعكس ذلك بصورة جلية في جملة الإصلاحات التي صار يطبقها في مملكته عقب عودته من رحلته.[57]

وأيضا الرحلة الحجية للإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي بصحبة تلميذه الفقيه عمر الشيخ ابن أحمد البكاي(817- 963هـ/ 1460-1553م). والفقيه محمود بن عمر أقيت عام 915هـ[58]/ 1509م، والفقيه عبدالله ابن إبراهيم التكروري عام 988هـ/ 1580م، وكانت فرصة لحصوله على إجازة من الفقيه قطب الدين النهرواني مفتي مكة المكرمة. وكما قام الفقيه الشنقيطي عبدالله بن محمد أحمد البوحسني برحلة حج حوالي 1077هـ/1665م، وكانت فرصة له للاستفادة العلمية من أبرز شيوخ الحجاز آنذاك ومنهم الشيخ أبي مهدي مفتي الحرمين.

ـــــ الهجرات:

لعبت تحركات القبائل وهجراتها دوراً عظيما في نشر الإسلام في السنغال، واندماجهم ومصاهرتهم للأفارقة. ومن أولى الهجرات القبلية التي

---

[56]- محمود كعت، 1981، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، وقف على طبعة من غير تغيير نصه مع ترجمته للفرنسية أوكتاف هوداس و موريس دولافوس، باريس، ميزونوف، ص. 16.

[57]- مطير، الثقافة العربية الإسلامية و أثرها على مجتمع السودان الغربي، م.س، ص. 166.

[58]- عبد الرحمن السعدي، 1981، تاريخ السودان، وقف على طبعه من غير تغيير نصه مع ترجمته للفرنسية أوكتاف هوداس بمشاركة تلميذه السيد بنوة، باريس، ميزونوف، ص. 76.

يممت صوب البلاد هي قبائل صنهاجة، بفروعها المختلفة وخاصة مسوفة وجدالة ولمتونة، والتي أدت أدوار هامة في حياة المنطقة، وبالذات الحياة الثقافية. وبعفل ظروف الاضطهاد التي تعرض لها المسلمون في الأندلس من جراء ضغط الممالك المسيحية عليهم وخصوصا بعد سقوط آخر معاقلهم (غرناطة) في أواخر القرن15م، اندفع كثير منهم صوب منطقة الدراسة، وعاشوا فيه، وذلك بعد أن تعاطف بعض السلاطين مع المطرودين وآووهم في المنطقة. كما شهدت المنطقة سيلا من هجرات البدو المنطلقين من الشمال الإفريقي والباحثين عن المرعى والماء لحيواناتهم التي هي أساس ثروتهم. خاصة قبائل بني حسان [59]وبالذات فرع البرابيش،[60] التي استقرت في منطقة أزواد.[61]

وفي عهد الحسن الوزان (ليون الإفريقي) كان البرابيش يحكمون تيشت.[62] ويبدو أن البرابيش كان لهم ثقل سياسي في المنطقة. أما المجموعة القبلية الحسانية الثانية التي انساحت جموعها نحو السنغامبيا، قبائل أولاد

---

[59]- **بني حسان:** هم ذرية حسان بن موسى بن حامد بن سعيد بن المختار بن عاقل بن معقل، وهم القبائل العربية التي دخلت الصحراء الشنقيطية في القرن 8هـ/14م فبسط عليها نفوذها السياسي والعسكري واللغوي وتوزعتها إمارات ورئاسات. راجع: أحمد الديماني، 1992، إخبار الأخبار بأخبار الآبار، تحقيق أحمد ولد الحسن، تعريب بول مارتي، الرباط: معهد الدراسات الإفريقية، هامش ص. 19.

[60] **البرابيش:** قبيلة من بني حسان يبدو أنها سبقت المغافرة إلى المجال الشنقيطي، واستقرت في طرفه الشرقي(شمال دولة مالي الحالية) بعد أن زحفت تحت ضغط المغافرة الواردين في أثرها. راجع: أحمد ولد الحسن، 1995، الشعر الشنقيطي في القرن 13هـ مساهمة في وصف الأساليب، طرابلس : جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ص53.

[61]- **أزواد** : تقع في الجزء الشمالي من دولة مالي الحالية.

[62]- الحسن الوزان بن محمد (المعروف بليون الإفريقي)، 1983، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ج. 1، ص 54. وتيشت هي إحدى المراكز التجارية والثقافية المعروفة ببلاد شنقيط، تأسست 536هـ على يد عبد المومن بن صالح الإدريسي القادم من المغرب في أواخر عهد المرابطين.

رزق[63] وأولاد عقبة وأولاد داوود بن عمران، ووصلت طلائع هذه المجموعات حوالي القرن 9هـ/15م إلى ما كانت تسمى منطقة القبلة[64]، وصارت هذه المنطقة منذ حوالي النصف الثاني من القرن 11هـ/17م ميدانا لصراع مفتوح بين صراع بني حسان، وبين قبائل صنهاجة، كان من أبرز فصوله حرب شرببه (1084-1088 هـ/1673-1677م)، والتي انتصر فيها بنو حسان، ذلك الانتصار، الذي لا يعني أنه انتصار عسكري فحسب، بل يعني الانتشار الواسع للغة العربية على حساب بقية اللهجات المحلية في المنطقة.

ـــ الطرق الصوفية:

سنحاول في هذا المبحث استنطاق المادة الإخبارية قصد تتبع واستنتاج ما قدمته هذه الدعوات في خدمة الإسلام والثقافة العربية للمنطقة.

تخبرنا بعض المصنفات التاريخية عن توافد شخصيات مشهورة بالتقوى والورع إلى بلاد السودان، فجاء وصف السعدي لتنبكت بأنها: (مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والصالحين)[65]. وكما قال عن مدينة جني: (وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكانا من العلماء والصالحين من غير أهلها من قبائل شتى وبلاد شتى)[66].

---

[63]- أولاد رزق : هم ذرية رزق بن أودي بن حسان، وهم من أول بني حسان دخولا إلى جنوب موريتانيا، وقد حكموا هذه المنطقة من القرن 8 هـ/ 14م، إلى أن كسرت شوكتهم على يد أحمد بن دمان مؤسس إمارة الترارزة، سنة 1630 م .راجع: محمد فال بن بابه العلوي، 1986، التكملة في تاريخ إمارتي البراكنة و الترارزة :نصوص من التاريخ الموريتاني، تحقيق، أحمد ولد الحسن، قرطاج : بيت الحكمة، هامش ص2 :

[64]- محمد اليدالي، 1990، نصوص من التاريخ الموريتاني شيم الزوايا، أمر الولي ناصر الدين، رسالة النصيحة ،المكتبة الثقافية المغاربية (بيت الحكمة, قرطاج، ص84.

[65]- السعدي، تاريخ السودان، م.س، ص 21.

[66] المصدر نفسه، ص16.

يتبين لنا أن الأرض الإفريقية شكلت تربة خصبة لنمو وترعرع هذه الدعوات، والذي وجد فيها الإنسان الإفريقي ما يشبع غريزته في البحث عن الأمان والاطمئنان، وتحقيقا للتوازن النفسي عند الفرد، وسعيه لكمال الأخلاق ولمعرفة طلاسم هذه الحياة، خاصة وأن معظم هذه الحركات انتشرت في البيئات البسيطة.

والجدير بالذكر أنه كان لكل شيخ أتباع ومريدون يطيعونه ويقدرونه حق التقدير ويدعمونه ماديا حتى أصبح لشيوخ الطرق الصوفية القدرة الكافية على توسيع دائرة نفوذهم وتأسيس المساجد والزوايا والتكايا والمدارس، واستقطاب المزيد من العناصر الموالية لهم، لذا أدوا دورا بارزا في توجيه الأهالي، وإرشادهم إلى أمور دينهم. فأدى ذلك إلى توسيع رقعة الإسلام.

ومن أولى الطرق الصوفية التي أدت دورا معتبرا في الحياة الثقافية لمنطقة السنغال ، هي الطريقة القادرية[67]. انطلقت هذه الطريقة إلى إفريقيا عن طريق مصر وبلاد المغرب، وتأثرت بالقالب المالكي السني لهذا المجال الأخير، مما دعاها إلى التأقلم والتغير لملائمة الوضع الجديد.

انتشرت القادرية في أرجاء السنغال عن طريق الكنتيين، الذين كان لهم اتصال مباشر بالطريقة على الأقل منذ القرن 10هـ/16م. وإن كانت مرجعيتهم الأساسية في هذا النطاق هي محمد بن عبد الكريم المغيلي. وقد

[67]- **الطريقة القادرية**: نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (471- 561هـ/ 1077-1116م)، دفين بغداد، كان لهذه الطريقة صيت ووجود في العالم العربي وأيضا في آسيا الوسطى والمجال الهندي. وكغالبية الطرق فإن القادرية اعتمدت في تعاليمها على نبذ الذات والسعي إلى الحلول في الملكوت الإلهي، والانصهار في بوتقة الرحمن، عن طريق طقوس وقواعد معلومة. راجع: علي بدوي علي سالمان، " الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا 1903- 1960"، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الدارسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 2003، ص 18.

- Gouilly (Alphonse), 1952, L'Islam dans l'Afrique occidentale française, Paris : Larose, 1952, pp. 96-97.

بدأت الطريقة في الانتشار في حوض النيجر وفي فوتا جالون منذ القرن11هـ/17م، مما يطرح السؤال حول انتساب القادرية عند الكنتيين إلى المغيلي، فإذا كان الأمر كذلك فبالأحرى أن تدخل القادرية إلى السنغامبيا عن طريق المد الفكري المغيلي، الذي كان له صيت وأبلغ الأثر على مملكة سونغي في عهد الأسكيين(1492-1591م)، وبعدهم في غالب بلاد السنغامبيا إلى نهاية القرن 13هـ/19م، إنما يرجع الفضل للكنتيين في إعادة تجديد عناصر انتشار القادرية بالصحراء والسودان عن طريق سيدي المختار الكنتي شيخ الطريقة عند نهاية القرن12هـ/18م وبداية القرن 13هـ-1م[68].

امتد دعاة القادرية نحو تنبكت حوالي القرن 9هـ/ 15م، ولم يمض زمن طويل حتى توزع هؤلاء الدعاة في مختلف أرجاء المنطقة، وخالطوا القبائل الوثنية التي رحبت بهم باعتبارهم معلمين، فكانوا يدعون إلى الدين والعلم معا، واستمر هؤلاء الدعاة القادريون يؤسسون المدارس، ويشرفون وينفقون عليها، وكان نشاطهم في الدعوة يقوم على الإرشاد السلمي، وعلى التمسك بالفضيلة التي تجعل من الداعي قدوة صالحة لغيره[69].

ومن الطرق الصوفية التي كان لها دور في نشر الإسلام **الطريقة العروسية**[70]، التي انتشرت في مناطق الشمال الإفريقي وكذلك في السنغال، وكان لها دور فعال وتأثير بالغ في تعميق الصلات الروحية والثقافية بين

---

[68] خالد شكراوي، "الأصول التاريخية للطرقية في حوض السنغال"، المناهل عدد 80-81، 2007، الرباط: منشورات وزارة الثقافة، ص70.

[69]- مطير، الثقافة العربية الإسلامية و أثرها في مجتمع السودان الغربي، م.س، ص 172.

[70]- **الطريقة العروسية** : نسبة إلى الشيخ أحمد بن عروس، المتوفى بتونس 868هـ/ 1462م. وهي طريقة سلفية سنية ترتبط بالطريقتين القادرية والشاذلية، وزاد من تدعيم الطريقة العروسية وذيوع صيتها تبني الشيخ عبد السلام الأسمر لها.

جانبي الصحراء. وانتشرت هذه الطريقة بمنطقتنا حوالي القرن 10هـ/ 16م. ومن الطرق التي أدت دورا معتبرا في تأطير العقيدة الإسلامية في المجال السنغالي، الطريقة التيجانية التي ظهرت في القرن 12هـ/18م على يد أبو العباس أحمد بن محمد التيجاني[71] من الجنوب الجزائري، من قرية عين ماضي.

ـ دور الدول الإسلامية:

1. دور مصر:

كانت مصر من أولى المناطق التي خضعت للفتح الإسلامي، وجاء ذلك بعد سلسلة من المعارك قادها عمرو بن العاص بعد أن أستأذن الخليفة عمر بن الخطاب حوالي سنة 22هـ/ 642 م، ثم اختط عمرة عاصمته الفسطاط التي بنى فيها أول مسجد للإسلام في مصر. إن ما يهم بحثنا من أمر فتح مصر هو أنها سوف تكون منطلق الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا وشرقها، أي المناطق التي سيسلكها الدعاة فيما بعد لنشر الإسلام في المنطقة.

وإلى الجنوب من مصر وجدت مملكة النوبة المسيحية، والتي تعرضت لحملات عسكرية متعددة من مصر إلى أن ضعفت. كما أدت السياسة الداخلية والدينية للدول الإسلامية المتعاقبة على حكم مصر إلى هجرة الكثير من القبائل صوب الجنوب، فانتشرت نحو سهول السودان، ومضت نحو سنار، ودخل بعضها كردفان ودارفور في السودان الأوسط، ومن هناك صوب السنغال. لكن هذا الطريق كان شاقا، وضم أجناسا مختلفة اختلفت درجة تقبلها

---

[71] ـ حرازم علي برادة، 1995، جواهر المعاني وبلوغ الأماني، بيروت، دار الفكر ص17.

للإسلام، وعليه بقيت أهم منطقة لنشر الإسلام بالمنطقة هي بلاد المغرب نظرا لقربها الجغرافي.

2. دور شمال إفريقيا:

لقد كانت مصر منطلق الفتح العربي لبلاد المغرب، فمنها اتجه الفاتحون الأوائل إلى من فزان، ثم إفريقية والمغربين الأوسط والأقصى. ورغم معارضة الأهالي بداية الأمر للدعوة الإسلامية، فإنهم ما فتئوا بعد ذلك أن تقبلوها. ومن قراءة سريعة لمصنف ابن عبد الحكم يتضح المجهود الكبير الذي بذله كل من: عبدالله بن أبي السرح، وعقبة ابن نافع، وزهير بن قيس البلوي وموسى بن نصير. مما أسفر عن نشر العقيدة الإسلامية وبداية تعريب سكان الحواضر.

وفيما يرجع الإشارات الأولى لبداية اهتمام القادة الفاتحين بالتوغل جنوباً نحو مضارب بلاد السنغال. فذكر ابن عبد الحكم بعض النصوص التي لا تخلوا من قيمة تاريخية، من بينها قصة افتتاح كوار سنة 46 هـ/ 666م انطلاقا من فزان، حيث يقول: "..**ثم مضى أي عقبة بن نافع إلى قصور فزان، فافتحها قصرا قصرا حتى انتهى إلى أقصاها. فسألهم: هل من ورائكم أحد؟ قالوا: نعم أهل خوار، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل، وهو قصبة كوار، فسار إليهم خمس عشرة ليلة، فلما انتهى تحصنوا، فحاصرهم شهرا، فلم يستطع لهم شيئا، فمضى أمامه إلى قصور كوار، فافتحها**". [72]

تلك إذن كانت أول محاولة للتوغل جنوبا نحو بلاد السنغال، وتكررت هذه المحاولة مرة ثانية عند وصول الفتح الإسلامي إلى إقليم سوس بالمغرب

---

[72] - ابن عبد الحكم، 1964، فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ص. 5.

الأقصى عندما أرسل حبيب بن عبيد الفهري (حفيد عقبة) سنة 116 هـ/ 734 م سرية إلى بلاد السنغال لتستقي أخبارها، فعادت محملة ببعض الذهب. وتلت هاتين المحاولتين محالة ثالثة على يد عبد الرحمن بن حبيب حاكم إفريقية، وذلك سنة 127هـ/745م، عندما حفر بعض الآبار في الطريق المؤدية إلى أدوغشت. [73]

فلماذا كل هذا الاهتمام من طرف الحاكم العربي بحفر الآبار على طول الطريق المؤدية إلى أدوغشت؟ حيث جاء ذلك دون ريب من أجل تذليل صعوبات عبور الصحراء في اتجاه بلاد السنغال بغية التجارة مع قبائلها. وكذلك من اجل إطلاعها على أركان الإسلام. ونؤكد بأن فكرة الاتجار مع شعوب المنطقة قد تزاوجت مع نشر الإسلام بينها.

هذه أهم الإشارات التي تبرز المحاولات الأولى للجيش العربي الفاتح للتوغل نحو السنغال انطلاقا من بلاد المغرب. ولا شك أن هناك محاولات أخرى أغفلت ذكرها المصادر العربية وإلا كيف يمكننا تفسير حديث البكري عن جالية بالسودان الغربي ترجع في أصولها إلى بقايا الجيش الذي أرسله الأمويون؟. يقول البكري: "**وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهيين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام**". [74]

---

[73] - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، م.س، صص. 156- 157.

[74] - نفس المصدر، ص. 179.

أثر الإسلام الإيجابي على المجتمع السنغالي

I- أثر الإسلام على السلوك والمعاملات الدينية:

إذا حاولنا أن نحدد جوانب التغيير التي أحدثها الإسلام على أشكال الممارسة الدينية بالنسبة للشعوب السنغالية التي تخلت عن الأرواحية[75] واعتنقت الدين الإسلامي، فإنه يُمكننا أن نستنتج بعض الملاحظات:

اعتادوا الأرواحيين التقرب من الخالق بواسطة الأضاحي والقرابين، لكن الإسلام اعتبر ذلك شركاً بالله، وعوّض هذه الوساطة بعلاقة مباشرة تتم بين المخلوق وخالقه، وأعطى مفهوماً مغايراً لما اعتقده الأرواحيون فيما يخص استمرار الحياة بعد الموت. فجعل من الحياة الدنيوية الفانية مرحلة انتقالية لحياة أخروية خالدة، وحدد العلاقة بينهما بأعمال الفرد الخيرية أو الشرية التي تقوده إما إلى الجنة أو النار. لكن، السؤال الذي يهمنا هنا، كيف نظم الإسلام الممارسة الدينية؟ وإلى أي حد طبّق السنغاليون أركان الإسلام؟

يبدو لنا أن الأهالي لم يجدوا صعوبة في استيعاب مسألة التوحيد، فهم في ظل ديانتهم السابقة كانوا يعتقدون في وجود إله خالق واحد. لكن الأرواحيين اعتقدوا في وساطة الأجداد والأرواح التي بإمكانها التدخل لدى الخالق. فعمل الإسلام، ومنذ الوهلة الأولى على القضاء على هذه الأفكار، فحُطمت المعابد الوثنية والأصنام التي رمزت إلى العلاقة بين العالم المرئي وغير المرئي. واعتقد أهالي السنغال أيضاً في نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وصدقوه في الدعوة إلى الدين الجديد، فنجد أحد ملوك غاو

---

[75] ـــ **الأرواحية**: مصطلح حديث، يُستعمل في حقل الدراسات الإفريقية للدلالة على المعتقدات السنغالية القديمة، والاصطلاح ترجمة للكلمة الفرنسية: (Animisme) أو (Fétichisme).

(Gao) يُغيّر اسمه الأرواحي باسم النبي صلى الله عليه وسلم، كما أطلقوا هذا الاسم في الغالب على المولود الذكر الأول.

لكن المثير للتساؤل، أن يدّعي أحد الأشخاص النبوة عام 918هـ/1512م في منطقة الفوتا (Futa). فهل كان هذا الأمر صحيحاً، أم أنه مجرد تبرير للهجوم على تلك الجهة من بلاد السنغال، من طرف جيش الأسكيا الحاج محمد، خصوصاً إذا علمنا بأنه كان خلال هذه الفترة في أوج قوته، وكان يقوم بحروب توسعية؟

وتعتبر الصلاة دعامة أساسية في الإسلام، فحرص السنغاليون عامة على أدائها منذ اعتناقهم للدين الجديد. واستحسن ابن بطوطة إقبال الأهالي على صلاة الجمعة وازدحامهم عليها[76]، أما الأسكيون فقد اهتموا ببناء مساجد جديدة، أو ترميم القديمة في إطار سياستهم الدينية. ومما ينهض دليلاً على أن هذا الركن قد ترسخ في نفوس الأهالي، هو أن يُحدّد توقيت العمل اعتباراً لمواعيد الصلاة. فهذا المدرس، قد وضع جدول عمله اليومي حسب مواقيت الصلاة، مما يعني أن المتعلمين سوف يرتبطون بهذا التوقيت، وكذلك سائر الناس الذين كانوا يأتمون بهذا المدرس.

وما من شك، أنّ أعمالاً أخرى ارتبطت بدورها بمواعيد الصلاة اليومية، كذلك هناك من لُقب بالمصلي لكثرة صلاته في المسجد. وفي الإطار ذاته، تُخبرنا بعض المصادر، أنّ أسكيا إسحاق كان مرضيّاً صالحاً، كثير الصدقات، ملازماً لصلاة الجماعة[77]، وهناك من كان يؤدي صلاة الاستخارة قبل الشروع في أمر هام. ولم يكتف البعض بالصلوات المفروضة بل كان يصلي النوافل، من أجل أن يزداد تقربه من الله.

[76] ـ ابن بطوطة، تحفة النظار، م.س، ص. 376.
[77] ـ محمود كعت، تاريخ الفتاش، م.س، ص. 87.

وبالنسبة لفريضة الزكاة، لم تحدثنا كثيراً المصادر عنها، ولكن من المؤكد، أنّ الأهالي كانوا يؤدونها ضمن الضرائب ووظائف السلطة المفروضة عليهم.

ولم يقتصر حج بيت الله الحرام ـــ على حد علمنا ـــ على السلاطين فقط، بل هناك من الأهالي من توفرت له الإمكانيات للقيام بهذا الفرض الشرعي. وحظي الحجاج بعد عودتهم باستقبال كبير من طرف السلاطين وعامة الناس، ومن الحجاج من فضّل مجاورة النبي، فاستقر بالمدينة المنورة نهائياً بعد أن صحب معه أهله.

في ضوء ما سبق، يتجلى لنا بوضوح أنّ الإسلام قد عوّض الشعائر الأرواحية بمبادئ جديدة تؤكد في جوهرها على توحيد الله، والإيمان برسالة نبيه صلى الله عليه وسلم، والمساهمة في خلق مجتمع تضامني يتلاحم فيه الغني مع الفقير، كما أصبحت العلاقة مباشرة بين الخالق والمخلوق. وكان لمبدأ التسامح الديني واحترام العقائد التي كان يعتنقها سكان المنطقة، دور كبير في ذلك، ونستحضر هنا ما قاله ولموث بليدن (W.Blyden) المسيحي الليبيري، عن قدرة العرب المسلمين على التأثير في عادات وتقاليد شعوب السنغال:"..إنّ السر في نجاح العرب المسلمين في مهمتهم في إفريقيا السوداء، أنهم احترموا العادات والتقاليد المحلية ولم يحتقروها".[78]

وإذا كانت المبادئ والتصورات الدينية قد عرفت بعض التغيير، فماذا عن أثر الإسلام على الحياة الاجتماعية؟

[78] Blyden (W), 1881, Chrisianity Islam and the Negro – Race, London, p. 22-23.

II. أثر الإسلام على بعض جوانب الحياة الاجتماعية:

إنّ المؤثرات العربية الإسلامية حملت جملة من التغيرات الهامة في مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة لشعوب السنغال، كالعادات والتقاليد، ونظام الأسرة، أدت في نهاية الأمر إلى حدوث امتزاج بين العادات والتقاليد العربية الإسلامية الوافدة، وبين العادات والتقاليد السنغالية المتوارثة.

ــــ الانتساب للأب بدلاً من نظام الأمومة:

نعلم من خلال فحص واستقراء بعض المصادر التاريخية، أنّ معظم المجتمعات الإفريقية، وخاصة مجتمع السنغال، يجعل القرابة من جهة الأم أساساً لتكوين القبيلة أو العشيرة. فالأولاد لا يُعتبرون أعضاء في جماعة أبيهم، وإنما يُعتبرون أعضاء من جماعة الأم. والحقوق، والالتزامات التي مردها الانتماء إلى جماعة ذات قرابة واحدة تترتب في العلاقة بين المرء وأقاربه لأمه؛ ولذا، فإن الأقارب من جهة الأم يلعبون في حياة الأبناء دوراً يفوق في أهمية دور الأقارب من جهة الأب. والدليل على ذلك، أنّ الخال في هذه المجتمعات التي تنتسب إلى الأم بدل الأب، له من الحقوق وعليه من الواجبات ما يتجاوز كثيراً حقوق الأب وواجباته قبل أولاده. فالرجل في المجتمع السنغالي كان يُسمى باسم عائلة أمه، أو قبيلتها، والنظام العائلي تسيطر عليه الأم. والقاعدة المتبعة في هذه المجتمعات هي الوراثة من ناحية الأم. وقد أكد ذلك القلقشندي بقوله: "على قاعدة العجم في تمليك البنت وابن البنت."[79]

---

[79] ــ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج .5، م.س، ص. 294

وبدخول الإسلام إلى المنطقة أخذت هذه العادات الأرواحية تندثر شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن، وبدأ الأهالي يتسمَون بالأسماء العربية، وأخذت الفوارق الطبقية والعائلية بينهم تتلاشى. وساعد كل ذلك على تطور دور الرجل في المجتمع، وأصبح الفرد يُنسب إلى والده ويحمل اسمه. فالإسلام كما نعلم، يختص القرابة الأبوية بالقدر الأكبر من الحقوق والواجبات. وقد تخلت العديد من المجموعات السنغالية التي اعتنقت الإسلام عن هذا النظام الأمومي، وحل محله النظام الإسلامي. ولمّا كان من العسير على مجتمع عاش حياته عبر قرون طويلة في ظل نظام أمومي أن يتخلى عنه بسهولة، كان طبيعياً أيضاً أن يتفاوت مدى تخلي هذه المجتمعات عن هذا النظام تبعاً لحداثة أو عراقة إسلامها. فهناك مجتمعات أمومية اعتنقت الإسلام منذ القدم، وتمكنت من إحلال النظام الإسلامي. وهناك، على العكس مجتمعات ظلت بنظامها الأمومي على الرغم من إسلامها[80].

ونعتقد أنّ عملية التغيير في المجتمع السنغالي نحو النظام الإسلامي وتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً كاملاً كان يحتاج إلى وقت ليس بالقصير، نظراً لرسوخ أفكار وعادات متوارثة تصعب معها عملية التغيير، ولكن في نهاية المطاف، تمكن الإسلام من القضاء على العديد من العادات الأرواحية ــــ ليس بشكل نهائي ــــ ومن بينها مسألة الانتساب إلى الأم بدلاً من الأب.

ـ العادات والتقاليد:

لا بأس أن نتعرف على بعض المظاهر والتقاليد الاجتماعية التي قام بها السنغاليون عند ممارستهم لحياتهم اليومية، وعن موقف الإسلام منها.

---

[80] ـ محمود سلام زناتي، 1969، الإسلام والتقاليد القبلية في إفريقيا، بيروت، دار النهضة العربية، ص. 97.

لقد عُرف عن أهالي السنغال عامة ولع شديد بالفرح والطرب، وانتشر بينهم مَثَلٌ يُفيد بأنّ عادة السمر شيء ثمين ما دامت أنها لن توجد في الآخرة. ونميل إلى الإعتقاد، أنهم سعوا إلى الإكثار من حلقات السمر هذه، للترويج عن عناء العمل اليومي، وعن المشاكل. فكانوا يعقدون لقاءاتهم بالخصوص في الأيام الصيفية والليالي المقمرة، وكانوا يتناولون مختلف أطراف الحديث، وقد يمارسون بعض الألعاب فيما بينهم. ولم تقتصر عادة السمر على العامة، بل همّت أيضاً الفئة الحاكمة. ومعلوم أن الإسلام لم يمنع لقاءات السمر والطرب، بشرط أن لا يغتاب الفرد غيره، أو تؤدي إلى الاختلاط بين الجنسين، مما قد يُفضي إلى تجاوزات أخلاقية.

ومن الجوانب التي أثر فيها الإسلام على بعض مظاهر الحياة اليومية، أن جعل توقيت العمل يتم، كما أشرنا سابقاً، حسب مواعيد الصلاة، كذلك اعتاد الأهالي أن يتناولوا طعامهم اعتباراً لمواقيت العبادات اليومية. ومن العادات أيضاً التي تأثروا بها، حسن العشرة، وتقديم الغير على أنفسهم، وكرمهم للغرباء، وغيرها من العادات الحسنة.

وإذا كان الإسلام قد أعطى معنى سامياً للحياة، فهو أيضاً حدد مفهوم ما بعد الموت، فجعل من أعمال الفرد وسيلة توصله إما إلى الجنة أو النار. لكن، كيف فُهمت عملية الانتقال من الحياة الدنيوية إلى الأخروية؟

لقد اعتبر السنغاليون كسائر المجتمعات الأخرى الموت شيئاً لا مفر منه، وحدد لهم الإسلام المسؤول عن الفناء، واعتبر الموت مرحلة انتقالية إلى عالم الآخرة والحساب. لذلك، تقبل الأهالي هذه الظاهرة، وقاموا بإجراءات الدفن كما دعا إليها الدين الإسلامي[81]. وبذلك، لم نعد نسمع عن دفن بعض

---

[81] ـ محمود كعت، تاريخ الفتاش، م.س ، ص. 130.

الأحياء مع سيدهم الميت لخدمته في قبره كما جرت العادة الأرواحية، أو عن طقوس أرواحية مرافقة لعملية الدفن.

بموازاة مع ذلك، أدى توافد المؤثرات العربية الإسلامية إلى المنطقة إلى اختفاء العديد من العادات الأرواحية التي كانت سائدة في تلك البلاد، ومنها: تقديم القرابين، وقتل الأطفال وبيعهم ورهنهم، والتخلص من التوأم. أضف إلى ذلك، عادة شرب الخمر وكافة المسكرات المنتشرة بين الأهالي، إلا أنّ تحريم العقيدة الإسلامية شرب الخمر وكافة المسكرات قد أثر في نفوسهم وفي عاداتهم، مما ساعد على تجنبها، وإقبال الناس على أعمال الخير، والكسب الحلال، وامتهان المهن الشريفة. [82]

ومن الظواهر البارزة التي تُطلعنا عليها بعض المصادر في مجتمع السنغال، ظاهرة الحجاب، فنساء إفريقيا لم يعرفن الحِجاب بل كُنّ سافرات إلى أن اعتنقن الإسلام، وبدأت بعض الفئات تلتزم بارتداء الحِجاب الذي يشبه كثيراً نظام الحِجاب السائد في البلاد العربية. وقد تأثر الحجاج الأفارقة بما شاهدوه من تحجُب النساء في مكة والمدينة عندما كانوا يؤدون فريضة الحج، وبالتالي، عندما عادوا إلى بلادهم سعوا إلى إلزام نسائهم بالحِجاب، إضافة إلى تأثرهم بالقبائل العربية التي هاجرت إلى المنطقة. وعلى الرغم من ذلك، فلا يمكننا تعميم هذا الأمر على كافة القبائل، فبعضها التزم به، وبعضها الآخر لم يلتزم به رغم إسلامه.

ومن مظاهر تأثر الحياة الدينية على الحياة الاجتماعية في مملكة سنغاي، أيام أسكيا الحاج محمد، بذله جهداً كبيراً في سبيل الخروج بالمملكة

---

[82]_ نعيم قداح، 1974، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط.1، ص. 173.

من طور القبيلة إلى طور الدولة المركزية التي صهرت أهالي هذه المملكة في بوتقة الوطن الواحد.[83]

فالإسلام لا يقر بالعصبية القبلية وما يستتبعها من احتقار متبادل وكراهية متقاسمة بين القبائل، وإنما يبشر على العكس، بالمودة والإخاء بين الناس. فاعتناق الإسلام عامل هام في إضعاف العصبية، وتحقيق التوافق والانسجام بين مختلف الجماعات البشرية المختلفة الأعراق والأنساب. والإسلام وإن كان يُعجّل بتفكك النظام القبلي، إلا أنه لا يترك الفرد فريسة الشعور بالضياع، وإنما يمنحه بديلاً لمجتمعه القبلي، مجتمعاً أرحب تسوده قيم المودة والإخاء. فدخول الإفريقي في المجتمع الإسلامي لا يجعل منه مواطناً من الدرجة الثانية، بل يسوي بينه وبين غيره من المسلمين أياً كانت صورهم وألوانهم. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}.[84]

مجموع ما تقدم من توضيحات، يتبين لنا أنّ العادات والتقاليد الأرواحية قد أخذت بالتفكك شيئاً فشيئاً بدخول التأثيرات العربية الإسلامية عليها. صحيح، أنّ هذه العادات احتاجت إلى وقت ليس بالقصير لكي تزول، وهذا أمر طبيعي، لأن العادات والتقاليد تعتبر جزءاً مهماً من حياة الإنسان ومن الصعب التحول عنها بسهولة ويسر، إلا أنّ امتزاج التقاليد الأرواحية المتوارثة بالتقاليد العربية الإسلامية الوافدة قد أدى في نهاية المطاف إلى ظهور بما يعرف بالتقاليد الإسلامية الإفريقية.

---

[83]- قام الأسكيون بحروب سياسية ـ قبلية كثيرة، أنظر السعدي على سبيل المثال، ص 74-77.

[84]- سورة الحجرات، الآية 13.

ـ طريقة المأكل والملبس:

ومن المظاهر الاجتماعية التي حاكى فيها أهالي السنغال الأنماط العربية الإسلامية، طريقة المأكل والملبس. لقد تأثروا بالنمط العربي المغربي وخاصة في طريقة ملبسهم. يقول القلقشندي: " لباسهم عمائم مثل العرب، وقماشهم بياض من ثياب قطن تنسج عندهم في نهاية الرقة واللطف تُسمى الكميصا، ولباسهم شبيه بلباس المغاربة، جباب و دراريع بلا تفريج".[85]

واللباس كما نعلم، يعتبر نوعاً من الأناقة يضفي على صاحبه الاحترام؛ لذلك حرص الناس على ارتداء أنسب ما يملكون، وخاصة في المناسبات الاجتماعية والأعياد الدينية. فقد كان الوجهاء حريصين على أن يظهروا في لباس زاهٍ فضفاض أمام العامة، في حين أنّ عامة الناس كانوا يلبسون حسب قدرتهم، وهناك من كان يستخدم الجلود للاكتساء وخاصة في فصل الشتاء في مناطق الصحراء. غير أن معظم الباحثين قد أجمعوا على أن أهالي السنغال كانوا قد تجاوزوا مرحلة العُري منذ زمن طويل، وخاصة بعد انتشار الإسلام، وأصبح الناس كافة في هذا العهد يقتنون الملابس. وذلك لأن الأهالي متأثرين إلى درجة كبيرة جداً بطريقة المدنية الإسلامية في مختلف سلوكياتهم؛ ابتداءاً من الأفكار، والتطورات الشخصية للفرد والجماعة حتى اللباس. كل ذلك كان قائماً على أساس تأثير القيم الدينية.[86]

أما عن المأكل، فقد انتقل العديد من الأطعمة التي كانت شائعة في الشمال الإفريقي إلى السنغال، إذ كان الكُسكُس الأكلة المفضلة والرئيسية على موائدهم، بالإضافة إلى لحم الغنم المشوي، والذرة والعسل ولبن المواشي والقصب. ولقد أدخل المغاربة العديد من عاداتهم في طريقة الأكل، وخاصة

---

[85] ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج. 5، ص. 299.
[86] ـ رحلة ابن بطوطة، ص. 376.

فيما يتعلق بوجبات الطعام اليومية، وتتمثل في وجبة العشاء، حيث كان سكان المنطقة قبل ذلك يكتفون بشرب اللبن في العشاء مع بعض الفطائر، أما وجبة الإفطار فكانت تتميز بالأطعمة الدسمة من لحوم وحساء.[87]

ـــ الزواج ونظام الأسرة:

تمتعت المرأة بمكانة مرموقة، حيث كانت الملكة الزوجة والملكة الأم أحياناً تشغلان مناصب هامة في البلاط الملكي، وتشاركان مشاركة فعلية في السلطة. وقد عمل أسكيا الحاج محمد على صون مكانة المرأة في مملكة سنغاي، وتوجيه سلوكها العام توجيهاً إسلامياً صادقاً. وإن بعض العادات والتقاليد الإفريقية قد أعطت نوعاً من الحرية للمرأة في العديد من الأمور؛ منها حرية اختيار زوجها، فأغلب القبائل تسمح بذلك، ولا تسمح لأبيها أو من يقوم مقامه بإجبارها على الزواج.

والزواج في المجتمعات الإفريقية، ولا سيما مجتمع السنغال، قبل تعرضه للمؤثرات العربية الإسلامية كان غير منتظم، ولا يستند إلى ضوابط شرعية. بل كان يعتمد أساساً على موروثات فوضوية يسودها التفكك والإنحلال. إذ كانت الأسرة في هذه المجتمعات تأخذ شكل الأسرة الممتدة (العائلة). وفي هذا الشكل تمتد الأسرة لتشمل؛ فضلاً عن الأب والأم والأولاد، إخوة الأب وأولادهم والأحفاد. ورب الأسرة عادة ما يكون أكبر أعضائها من الذكور، وقد يعزل رب الأسرة إذا لم يكن في مستوى المسؤولية، ويحل عضو أصغر منه مكانة. ولرب الأسرة على أفرادها، في العادة، نفس الحقوق التي للأب في الأسرة بمعناها الضيق.[88]

---

[87] أسماء أحمد الأحمر، 2008، الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية، طرابلس، منشورات الجامعة المغاربية، ص. 164.

[88] ـ محمود سلام زناتي، الإسلام والتقاليد القبلية في إفريقيا، م.س، ص. 101.

وبعد اعتناق هذه الشعوب للإسلام، أخذ نظام الأسرة الممتدة يختفي بالتدريج حيث يُحرِّم الإسلام الزواج بأكثر من أربع زوجات في وقت واحد، وذلك خلافاً للعادات الأرواحية التي تتيح تعدد الزوجات بدون تحديد، والإسلام، من ناحية، يركز على الحقوق والواجبات في العلاقة بين الأب وأولاده. ومن ناحية أخرى، يسمح باقتسام أموال الموروث عند وفاته، ويسهم ذلك في ازدياد أهمية الأسرة بمعناها الضيق على حساب الأسرة الممتدة، فتزداد أهمية الأب وتقل بالمقابل أهمية رب الأسرة. وتختفي الملكية المشتركة لتحل محلها الملكية الخاصة أو الفردية. ومن العوامل التي أسهمت في زوال الأسرة الممتدة، اختفاء ظاهرة عبادة أرواح الأسلاف بعد اعتناقهم الإسلام.[89]

أما فيما يخص موضوع أهلية الزوجة، فإن أغلب القبائل لا تنتقص أو تلغي أهلية الزوجة المالية بعد الزواج، فالمرأة تظل مالكة لأموالها التي كانت لها قبل الزواج، أو التي اكتسبتها أثناءه. وليس للزوج، كقاعدة عامة، أية سلطة على هذه الأموال، فالمرأة هي صاحبة التصرف فيها. ومنهن من تملك مزارع أو ماشية وذلك حسب طبيعة حياتها الاقتصادية. هذا بالإضافة إلى الموروثات الاجتماعية الأخرى كعدم المساواة في الميراث بين الذكور والإناث. ففي بعض المجتمعات تُحرم المرأة من وراثة الأموال، وفي المجتمعات الرعوية يجري العرف بحرمان المرأة من وراثة الماشية، وحرمانها من هذا الحق تفسره نظرة هذه المجتمعات إلى الماشية بوصفها أوثق صلة بالرجل منها بالنساء.

خلاصة القول، مع تغلغل مؤثرات الحضارة العربية الإسلامية إلى المنطقة بدأ اضمحلال المظاهر الأرواحية التي كانت سائدة في النظام القبلي

---

[89] ـــ المرجع نفسه، ص. 102.

شيئاً فشيئاً، خاصة بعد أن اختلط التجار العرب وغيرهم من العناصر المسلمة، التي وفدت إلى السنغال، بأهالي المنطقة، وتصاهروا معهم. وقد أدى هذا التصاهر والتمازج بين المسلمين الوافدين وبين أهالي المنطقة إلى انتشار الثقافة العربية والعقيدة الإسلامية، كما وقع على عاتق الهجين الجديد عبئ توطيد دعائم المؤثرات العربية الإسلامية والدفاع عنها، وإليه يرجع الفضل في تأسيس المؤسسات الإسلامية والدفاع عنها في تلك المناطق.

III. التأثير في الحياة الاقتصادية:

انساحت مؤثرات الثقافة العربية الإسلامية على الحياة الاقتصادية إلى السنغال بصورة رئيسية من الشمال الإفريقي، وسهّل تقدمها وتوسيع رقعتها في تلك البقاع، وتصاعد النشاط التجاري وازدهار طرق القوافل التجارية بين شمال القارة وغربها. وأصبح دور هؤلاء التجار واضحاً في فتح المسالك التجارية في الأماكن التي ارتادوها، فضلاً عن توثيق علاقاتهم الاقتصادية مع الأهالي، الذين وجدوا منهم ترحيباً واحتراماً كبيرين لما تحلوا به من صدق وأمانة في تعاملهم وتصرفاتهم.

ولقد كان لهذه المؤثرات دور هام في وضع أسس مفاهيم اقتصادية لم تكن معروفة لدى المجتمع السنغالي من قبل، ومنها: نظم المعاملات التجارية كالمقايضة، والعُملات، والمقاييس والمكاييل، والزراعة والثروة الحيوانية، وكذلك الصناعات والحرف.

IIII. التأثير في الحياة السياسية:

عرفت بلاد السنغال أنماط حكم متعددة، امتزج فيها النمط الإفريقي المتوارث بالأنماط العربية الإسلامية التي لوحظ تطور وجودها رويداً رويداً

مع خضوع المنطقة للمؤثرات العربية الإسلامية. ومن أبرز الملاحظات على جهاز الحُكم السنغالي، أنه كان يتمتع بمركزية واضحة تؤول فيها السلطة إلى الملك الذي يرأس هذا الجهاز، ويساعده في ذلك مجلس للوزراء وموظفون من دواوين الدولة المختلفة. وكان الملك يصدر توجيهاته شفاهة ولا يكتبها في الغالب الأعم، بل يأمر صاحب الديوان فيكتب بالخط العربي على طريقة المغاربة.[90]

وستجري دراسة مؤثرات الإسلام على النظام السياسي من خلال العناصر التالية: اختيار الحاكم ومراسم تنصيبه، والجهاز السلطوي.

1. اختيار الحاكم ومراسم التنصيب:

من خلال فحص واستقراء بعض النصوص والمصادر التاريخية نسجل الملاحظات التالية:

® وجود نظام وراثة العرش، سواء عبر ولاية العهد أو عبر التولية الاستشارية.

® إتِبَاع نظام سُلالي في التولية.

® وجود قواعد عامة، وحد أدى من الممارسات، تنظم عملية التولية.

® انتشار مظاهر الصراع على السلطة إبان التولية، وربما شكلت نوعاً من المعارضة، وهي غالباً محلية و أسروية.

® الاستمرارية التطورية لنظام التولية من مملكة غانة إلى نهاية مملكة سنغاي.

---

[90] ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج. 5، ص. 298 .

® الإسلام، وتأثيره على المسار السُلالي، من الأموي إلى الأبوي.

® الإسلام، وإدخاله مفاهيم سياسية جديدة، ونخص بالذكر، لقب ومؤسسة الخلافة، والاستخلاف.

® عرف حكام السنغال نظام البيعة التي اشتهرت عند المسلمين، كما حرصوا على التشبه بالخلفاء والحكام العرب المسلمين في طريقة تصميم قصورهم، وقاعات الاستقبال، التي عادة ما كان يُلحق بها قاعة كبيرة يجلس فيها الملك إلى جانب ضيوفه وخاصته، وكانوا يسمونها المشور[91]. أما عن مراسم تنصيب الملك، فقد كان يتم وفقاً لطقوس معينة، وهي أن يقوم شخص يُعرف بضارب طبل الملك، ويضرب الطبل إعلاناً بتنصيب الملك. وبخصوص مكان التنصيب، فعادة ما تقام في القصر الملكي، بأن يجلس ضاربو الطبول، ويتم خلال الحفل منح الملك إشارات السلطنة، متمثلة في قميص مزركش، وغطاء على الرأس، يشبه في شكله التاج، بالإضافة إلى العمامة الخضراء، والسيف والبردة، ويبدو أن هذا التقليد قد أُخِذ من الشرق، حيث قلد أسكيا الحاج محمد بذلك من قبل، الخليفة العباسي، وذلك أثناء رحلته إلى الحج عام 1496م.[92]

® إنّ الاحتفال بمراسم التنصيب، يبدأ باستقبال الملك لرؤساء الولايات والأقاليم وكبار الموظفين وقادة الجيش بقصره، ثم يجلس على سرير العرش، حيث تُطلَق أصوات الطبول، وتقدم إليه شارات السلطنة، ثم يقوم الملك بمصافحة أعضاء جهازه الإداري وقائد جيشه، ويصلي في المسجد، ثم يتلقى يمين الإخلاص له من قبل كبار الموظفين وأفراد العائلة الحاكمة، ويتم

---

[91] ـ كلمة عربية مشتقة من المشورة أو الشورى، وهي فناء خارج القصر وباب القصر في داخله أي إن الداخل إلى القصر يمر أولاً في المشور ثم القصر.

[92] ـ تاريخ الفتاش ، ص. 1.

ذلك القسم باليمين أمام القاضي والعلماء، ويضع الذي يقسم بالله على الإخلاص والطاعة للملك الجديد يده على المصحف الشريف. وفي الليل، تقام حفلات الطرب الساهرة احتفالاً بذلك التنصيب، وفي اليوم التالي يتولى الملك الجديد مباشرة سلطنته، ويبدأها بتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين.

® كما تَشبه ملوك السنغال بالحكام المسلمين في باقي جهات العالم الإسلامي، ومن مظاهر ذلك، أنهم أجزلوا العطاء لرجال الدين والأدب والثقافة من أهل البلد، ومن الوافدين من المشرق العربي والشمال الإفريقي، مما جعلهم يُسهمون بإيجابية في النهضة الدينية والثقافية التي عمَت المنطقة.[93]

2. الجهاز السلطوي:

بعد وصول الملك إلى السلطة أو بعد تأسيسه لأسرة جديدة، كيف يمارس سلطته؟ وما هي الأدوات التي يستعملها في ذلك؟

حقيقة، نملك العديد من الأجوبة على هذه الأسئلة، نلخصها في عناصر محددة، لن نناقش ضمنها أصول هذه السلطة والمراتع التي تُستمد منها، وإنما نهتم ببعض الهيئات المقربة من الملك، التي تتمثل في الحاشية، التي جمعنا تحتها أفراد العائلة المالكة وجهاز الموظفين المرتبط بالقصر[94].

تتشكل الحاشية من عناصر مختلفة ذات مهام متباينة، فهناك أفراد العائلة الحاكمة من أمراء وزوجات، ثم هناك كبار الموظفين وحكام الأقاليم

---

[93] ـ مطير سعد غيث أحمد ، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها على مجتمع السودان الغربي، م.س، ص. 313.

[94] ـ يبقى الحديث عن جهاز الموظفين في السنغال وعن النظام الإداري محرجاً نوعاً ما، خاصة وأن هذه المصطلحات التي تدور حول فلك الإدارة لا توفي بالمعنى المنشود، وما استعمالنا لها سوى لتقريب الفهم.

والهيئات الساهرة على الحياة الاقتصادية والقانونية والدينية والثقافية. كل هذه العناصر تؤثر، بشكل أو بآخر، على الملك، وتلعب أدواراً مختلفة ومتعارضة أحياناً، قد يؤدي البحث في غمارها إلى تفسير العديد من الاضطرابات والمشاكل التي عرفها النظام الملكي المحلي[95].

الملاحظة الأساسية في هذا النطاق، هي أنه ليس هناك فرق بين الجهاز الوظيفي والعائلة المالكة، وتتسع هذه الملاحظة لتشمل كل الهيئات الأخرى المختلفة المشارب والتخصصات. فتقلد منصب ما، لا يفرض انتماءاً معيناً، بينما يبقى السُلَم، الذي يحدد مدى القرب والبعد من الملك، رهين بالشخص في حد ذاته في مرحلة أولى، ثم بالمنصب بشكل مطلق في مرحلة ثانية[96].

ومن أهم الملاحظات التي سجلناها حول مفهوم الجهاز السلطوي هي كالتالي:

- تتوزع المملكة "إدارياً" إلى أقاليم أو إمارات، على رأس كل منها حاكم، قد يأخذ لقب ملك في بعض الأحيان، كصاحب إمارة غانة في عهد مالي عندما أصبحت تابعة لها. ويتلقب حكام الأقاليم بـــــ: "كي"، أو "فارب"، أو "فارم". وهذه المصطلحات حسب تتبعنا لها، تعني: ملك، أو أمير، أو حاكم..الخ.
- كان لحكام الأقاليم سلطات واسعة وقوة كبيرة، تتمثل في الحرس الخاص والجيش، وكانت لهم الحرية في تسيير شؤون مناطقهم، اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، رغم بعض التجاوزات التي تتم المعاقبة عليها في حال افتضاحها.
- يتسلم هذه المناصب العليا أشخاص عاديون، أو أفراد من العائلة الحاكمة كالأبناء والأمراء.

---

95 ـ خالد شكراوي، "الدين والسلطة في إفريقيا الغربية"، م.س، ص. 90.
96 ـ المرجع نفسه، ص. 90.

- يبقى الملك على اتصال مع هؤلاء الحكام، وهناك تقليد صارم في مقابلته لهم وفي طرق تصرفه معهم. كما انهم موجبون بتقديم تقارير عن أعمالهم للملك.
- قد يصبح لبعض الموظفين سلطات تفوق سلطات الملك، خاصة في فترات الاضطراب، كما أنّ جلوس الملك على العرش يعتمد على مدى مناصرة هؤلاء الموظفين له.
- كان لبعض العناصر قوة وتأثير كبير على الجهاز السلطوي وعلى رأسه الملك، ولم تكن هذه العناصر ـــ حسب علمنا ـــ تتوفر على أي مناصب سياسية أو عسكرية. وكانت تستمد سلطتها انطلاقاً من قربها من الملك أو العائلة الحاكمة أو الموظفين الكبار، ونخص بالذكر، زوجات الملك اللواتي كانت بينهن صراعات ضارية حول ولاية العرش، بما أن مكانة الزوجة الأم ومدى قربها من الملك، يُحدد بشكل جوهري إمكانية حصول ابنها على حق ولاية العرش. عموماً، كان للزوجة أثر كبير على تصرفات الملك، بل قد تصل إلى حد المشاركة في الحكم، كما كُنّ يُسيرن إقطاعات هامة عن طريق مجموعة من العبيد، ويتصرفن في أموالهن بكل حرية.

إنّ تدخل مجموع هذه العناصر من أقرباء وموظفين في الجهاز السلطوي، إما لانتمائهم إليه أو لقربهم منه، يجعلهم في محل التأثير عليه، إلى حد تسييره في بعض الأحيان وفقاً لأهوائهم ومصالحهم. ولا يستطيع الملك التخلص أو الابتعاد عن هذه العناصر، فهي ضمان مشروعيته، وهي التي تشكل إمكانية استمرار النظام. ويبقى أن نُذكّر، أنّ العلاقات ما بين هؤلاء الأفراد والملك، وإن كانت قواعدها صارمة، فإنّ هناك نوعاً من الحرية في التصرف التي ينعم بها الموظفون الكبار، تشبه إلى حد ما، ما نسميه باللامركزية في التسيير. وهذه الظاهرة الإدارية فُرضت على السلطة،

لأسباب تتعلق بالأشكال الاجتماعية والثقافية المختلفة، التي تنضوي تحت سلطة هذا الجهاز. فتنوع الأجناس البشرية على شساعة المساحة السياسية للمملكة، يجعل من المستحيل الاعتماد على مصدر واحد للقرار السياسي والإداري، كما يجعل من الضرورة عدم الارتباط بالمصدر الوحيد لإمكانية صدور هذا القرار، والذي يحدد في العاصمة[97].

خلاصة القول، يتضح مما تقدم، أنّ الإسلام قد أحدث تغيراً مهماً في حياة الفرد السنغالي، وهذا التحول، لم يكن ليحدث والثقافة الأرواحية لا زالت منتشرة انتشاراً كبيراً، فقد تخلت شعوب سنغالية كثيرة عن دياناتها الأرواحية منذ منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، وأصبحت تقاليدها تتفكك بمرور السنوات حتى لم تعد تقتصر إلا على بعض العادات القليلة.

وعليه، يمكننا القول وبكل إطمأنان، أنّ الإسلام قد أدخل إلى حوزته الثقافية مجالاً جغرفياً جديداً تمثل في منطقة السنغال، التي أصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية الوسيطية القوية، سيما وأنّها قد امدتها ببعض مصادر القوى الاقتصادية. وبذلك، لم تنعزل السنغال عن تطورات العالم الإسلامي في العصر الوسيط ومطلع الحديث، بل ساهمت فيه وتأثرت بأحداثه. فعاشت مرحلة قوته وتأثرت بضعفه، مما يعني بأنّ تشكيل التاريخ السنغالي لم يتم خارج أو على هامش التاريخ الإسلامي.

فانتظم المجتمع السنغالي فكرياً، ودينياً، وسياسياً، واقتصادياً، وفق التصور الإسلامي الذي عوّض بالتدريج المنظور الأرواحي الذي كان سائداً بالمنطقة. فأصبح هذا المجتمع مجتمعاً إسلامياً لا يختلف عن باقي مجتمعات العالم الإسلامي، بل ربما فاقه في كثير من الأحيان، وذلك بالنظر إلى الصعوبات والعراقيل الجمة التي واجهت مسيرة الإسلام بالمنطقة.[98]

---

[97] ـ "الدين والسلطة في إفريقيا الغربية"، ص. 95.
[98] ـ الإسلام والمجتمع السوداني، ص. 211.

الفصل الثالث

بدايات الحضور الأوروبي في المنطقة
وردود الفعل المحليـة

أولاً ـــ التدافع الأوروبي على الشواطئ السنغالية:

بعد مجهودات جبارة، تمكن البرتغاليون ـــ في إطار كشوفاتهم الجغرافية ـــ من الوصول إلى مصبي نهري السنغال وغامبيا، وذلك قبل عام 1460م.[99]

وباعتبار أهداف الكشوفات، المتمثلة في الحصول على الذهب والرقيق الإفريقي فضلاً عن نشر الديانة المسيحية، فقد كان طبيعياً أنْ يعمل البرتغاليون على إنشاء عدد من القلاع والحصون لتنظيم التجارة على طول السواحل السنغالية المكتشفة.[100]

ولم ينتظر العرش الإسباني طويلاً لكي يلتحق بالبرتغاليين في سعيهم لتحقيق نفس الغايات والأهداف.

وخلال القرن 16م، تزايد الاهتمام الإيبيري بالمنطقة الواقعة ما بين نهري السنغال وغامبيا (السنغامبيا)، وازداد ضغطهم للحصول على الذهب والرقيق، خاصة بعد أن دخلت هذه المواد في ما يُعرف بالرواج الثلاثي ما بين أوروبا وإفريقيا وأمريكا.[101]

ويمكننا التأكيد ـــ مدعومين بالوثائق المصدرية ـــ أنَّ منطقة السنغال، شكلت خلال الفترة المتراوحة ما بين منتصف القرن 15م ومطلع القرن 17م، أهم مصدر للعبيد. الشيئ الذي كان له أثر فظيع على البنية

---

[99] ـــ وهي السنة التي توافق وفاة الأمير البرتغالي هنري الملاح، الذي كان له دور رائد في تشجيع عملية الكشوفات الجغرافية.

[100] ـــ أحمد الشكري، 2002. "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال". ضمن أعمال الندوة الدولية المنعقدة في داكار ـــ السنغال (14ـــ 19 دجنبر 1998)، بمناسبة مرور مائتي سنة على ميلاد الحاج عمر الفوتي تال، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، ص. 46.

[101] ـــ نفس المرجع، ص. 47.

السكانية للمنطقة، وساهم هذا العامل بدوره في خلق وضعية سياسية واجتماعية ونفسية صعبة للغاية.

وقد يحلو لبعض الدارسين بهذا الصدد، أنْ يدافعوا عن الرأي القائل بأنَّ تجارة الرقيق الأوروربية، ما هي إلا امتداد لتجارة الرقيق الاسلامية عبر القوافل الصحراوية. بيد أنَّ هذه الفكرة الملغومة لا تستند على أي أساس من من الصحة وولا تؤيدها الوثائق المتوفرة سواء كانت عربية أو أوروبية.[102]

والأكيد لدينا كذلك أنه بعد انهيار الامبراطوريات القرطوسية، تفتت الوحدة السياسية لبلاد السنغال؛ حيث برزت ممالك صغيرة كما هو الشأن في كايور، وباول، ووالو، وغيرها من المناطق. وكانت هذه المناطق خاضعة لزعماء محليين، غالبا ما كانوا يتصارعون فيما بينهم لتوسيع مجال نفوذهم، وقد امتد هذا الصراع ليشمل الإمارات البيضانية على الضفة اليمنى من نهر السنغال. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل وجدناهم يتنافسون في خدمة طلبات التجارة الأطلسية، المتمثلة أساساً في توفير الرقيق للأساطيل الأوروبية. ولتحقيق هذه الغاية اجتهد الزعماء في خلق فرق من القناصة، زرعت الرعب بين الأهالي، ودفعت بالكثير منهم إلى الهرب نحو المناطق الأكثر أمناً.[103]

ومع بداية القرن 17م، دخلت كل من فرنسا وانكلترا حلبة الصراع في السنغال، وكانت هولندا قد سبقتهما بعدة عقود من الزمن. غير أنَّ قوة فرنسا و انكلترا، جعلتهما ينفردان بحضور متميز، تدعّم من خلال إنشاء عدد من الحصون، مثل حصن سان جيمس عند مصب نهر غامبيا، وحصن سانت

[102]- Mauny (R), Tableau Géographique du l'Ouest Africain... op. cit. p. 327.
[103]- Barry (B), La Sénégambie du Xvé au XIXé siécle. op. cit. p. 77.

جيمس عند مصب نهر السنغال. وبموازاة مع ذلك، تراجع الحضور الإيبيري واندفع نحو الجنوب، بينما تمَّ اقصاء هولندا من حلبة الصراع.

ولتدعيم موقعهما على الساحل السنغالي، تمَّ خلق عدد من المؤسسات التجارية، تمتعت بامتيازات هامة، نخص بالذكر منها، احتكار التجارة مع المنطقة. وبذلك ازداد وتنامى التنافس التجاري بين فرنسا وانكلترا، الشيئ الذي ساهم في خلق وبناء عدد من الحصون الأخرى، مثل حصن سانت جوزيف عام 1700.[104]

على أنَّ الحروب النابليونية في أوروبا، خاصة بعد هزيمة واترلو، كان لها وقع كبير على مكانة فرنسة في المنطقة، الشيئ الذي حرمها لبضع سنين من ممارسة نفوذها في المراكز والحصون التي أنشأتها على الساحل الأطلسي الإفريقي. ولم تتمكن فرنسا من استعادة نفوذها إلا بعد توقيع معاهدة باريس عام 1815م. لتبدأ بذلك من تاريخ الاستعمار الفرنسي بالمنطقة.

ـــ مرحلة العلاقات السلمية بين فرنسا والسنغال من بدايتها إلى سنة 1817:

لا يمكن فهم الوضع العام بشكل صحيح في السنغال، خلال الحقبة الاستعمارية المدروسة دون معرفة الأدوار الاقتصادية، التي لعبتها فرنسا، وأثرت من خلالها في مجريات الأحداث، ولمعالجة هذا الوضع يتوجب علينا التطرق لعلاقات فرنسا السلمية ـــ والقائمة أساساً على الجانب الاقتصادي ـــ مع الممالك السنغالية حتى عام 1854.

[104] ـــ أحمد الشكري، "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص. 49.

لم ترفع الراية الفرنسية في مياه نهر السنغالي إلا في وقت متأخر مقارنة مع بعض الدول الأوروبية؛ مثل البرتغال وهولندا وانكلترا التي كانت سباقة إلى سواحل غرب إفريقيا منذ القرن 16م. لكن عندما نجحت فرنسا في إنشاء نواة في سانت لويس Saint Louis عام 1659م عملت على إقفال مدخل النهر، ومنع سفن غيرها من الدول من الاستفادة من هذا الموقع، والإطلاع على كنوز المنطقة، وأسرارها. وحققت بذلك احتكاراً تجارياً للشركات ذات الامتياز التي ستتعاقب على تنفيذ مشاريعها بالمنطقة حتى عام 1763م.[105]

وبغض النظر عن المشاكل التي لاقوها، فإنَّ المخطط الذي وضعوه لانفسهم كان يهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق الصعود مع نهر السنغال أبعد ما يمكن للحصول من بلدانه على أكبر كمية ممكنة من السلع مثل الصمغ والعبيد للعمل في المزارع، والعاج وريش النعام والذهب.[106]

ومما تجدر الإشارة إليه، أنَّ الاتصالات بين الأهالي والفرنسيين في إطار المعاملات اليومية، كانت تتم في ظروف سلمية حققت للشركات المعنية كل شروط النجاح دون خوف من النهب والسلب. ولم يتوفر هذا الأمن إلا بوجود إرادة سياسية تسهر عليه وترعاه مقابل ثمن معين متفق عليه بين حكومة الأهالي وإدارة سانت لويس.

وحققت المعاملات التجارية الفرنسية في المنطقة بين 1804ــــ 1805م أرباحاً هاماً، رغم ما شاب ذلك من سلب ونهب من قبل الاهالي لبعض السفن التي تتوقف عن السير بسبب نقصان مياه النهر، مما حذا بوالي

---

105 ـــــ عبدالله عيسى، "الاستراتيجية العسكرية للاستعمار الفرنسي في السنغال"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الحسن الثاني، المغرب، (2008ـــــ2009)، ص. 49.

106 ___ La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p. 73.

سانت لويس بلانشو (Blanchot) إلى تنظيم حملة عسكرية تأديبية ضد قرية فاناي (Fanay) شرق دكانا (Dagana)، ثم أُحرقت اثنتي عشرة قرية بشرق بودور (Podor)، لكن الحملة خسرت في المعركة أربعة عشر قتيلاً بمن فيهم قائد الحملة نفسه وقبطان و مدعين وجرح ثمانية عشر جندياً.

لقد كان هذا أول حادث اصطدام مسلح بين الطرفين، وهو الوحيد في هذه المرحلة الأولى التي نعتنا علاقاتها بين الطرفين بالسلمية، لكنه اعتبر ــــ في نفس الوقت ــــ بداية لسلسلة طويلة من أعمال العداء التي تلي بعد فترات من السلم وتشوبها وتؤثر عليها كما سنرى في المحور الخاص بتدهور العلاقات بين الفرنسيين و السنغال.

وبهذا يمكن القول، أنَّ سياسة بلانشو التي اختارها بديلا عن الآلة الدبلوماسية، لم ينتج عنها سوى إفراز مناخ من البغض المتبادل و انعدام الثقة بين الجانبين، مما أدى في النهاية إلى الإساءة للعلاقات السلمية إلى ذلك الوقت بين فرنسا و أهالي السنغال.

ــــ مرحلة تدهور العلاقات بين(1817و 1854م):

كان من الممكن أنْ تستمر العلاقات بين الفرنسيين وحُكّام السنغال رغم بعض السلبيات التي كانت تشوبها، مثل حادث فاناي (Fanay) الذي ظل معزولا رغم المنافسة الإنكليزية التي كانت تقصي فرنسا عن المنطقة من حين لآخر[107]، لو وجد والٍ على المستعمرة الفرنسية بالسنغال أكثر مهارة ومرونة من القائد شمالتز (Schmaltz) ابتداء من عام 1817م بإمكانه مد الجسور من جديد مع الحُكام المحليين بغية إبرام علاقات جديرة بالثقة.

[107] ـ كما حدث مثلا عندما استولت إنكلترا مرة أخرى على سانت لويس من عام 1809 إلى 1816م.

لقد كان خطأ شمالتز الأساسي والذي تورط الولاة الذين أتوا بعده حتى سنة 1853م، هو إهماله الشروع في إجراء مفاوضات جديدة واكتفاؤه بالسير على قاعدة الضرائب العرفية المقررة بموجب معاهدة 1806م، بسبب اقتناعه ــ ربما ــ بأنَّ الأمور ستسير على أحسن ما يرام مستقبلاً لصالح فرنسا بنهر السنغال.[108] ولعل هذا التوقع المتفائل غير المشوب بالحذر من قبل شمالتز، وبناءً على تقاريره، أقرت الحكومة العزم على القيام بمشاريع كبيرة في السنغال مثل:

- التنمية الفلاحية على طول النهر.
- إعادة بناء المرافئ والحصون القديمة به.
- تعيين معمرين.
- إرسال بعثات علمية إلى المنطقة لاستكشاف نهر السنغال، والأصقاع الداخلية.

وكان من شأن القيام بهذه المنجزات والتحصينات العسكرية الفرنسية على طول نهر السنغال، لفت انتباه الأهالي إلى الخطر الأجنبي الذي أصبح يهدد بلادهم بالاحتلال، ودخول الطرفين في مرحلة من تدهور العلاقات منذ عام 1819م.

والجدير بالذكر، أنَّ الفرنسيين باستفادتهم من التجارب الاستعمارية السابقة نهجوا في بلاد السنغال سياسة فرق تسد بين الأمراء بمساندة البعض لإضعاف الطرف الآخر، وحققوا الكثير من الأهداف. هذا التقدم الذي كانت تحرزه فرنسا في الميدانين السياسي والدبلوماسي في نهر السنغال مدعوما بالآلة العسكرية خدمة لانجاح المشاريع الاقتصادية، غالباً ما كان يكبح جماحه

---

[108] ـ أحمد الأزمي، 2000، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ج. 2 ، ص. 472.

مستجدات سياسية وعسكرية؛ إقليمية ودولية مثل الحروب في أوروبا وفيما وراء البحار التي كانت فرنسا طرفاً فيها، ومنافسة الدول الأوروبية لها في غرب إفريقيا، وخصوصاً إنكلترا التي اقتصتها عن سانت لويس وكوري عدَّة مرات.[109]

لكن الأمر الأكثر سلبياً لتقدم فرنسا في أعالي نهر السنغال، التغيير المستمر والسريع لولاة سانت لويس، مما كان يحول دون مواصلة العمل الدبلوماسي، كما شهدت بذلك تقارير بعض هؤلاء الولاة أنفسهم. وللبرهنة على ذلك، يكفي القول أنه ما بين عامي 1829 ـــ 1845م تناوب على حكم مستعمرة السنغال الفرنسية اثنا عشر واليا أو نواب ولاة، ولعل هذا الواقع هو الذي أفضى إلى دخول الأهالي في مواجهات مستمرة.

وقد أدت هذه الحالة من انعدام الثقة بين الطرفين إلى تعرض السفن الفرنسية وتجارها والمتعاونيين مع فرنسا إلى جملة من الاعتداءات وأعمال السلب والنهب، رد عليها الفرنسيون بكل ما يتطلب الموقف من الصرامة. ونأخذ مثال على ذلك، عندما نهبت سفينة فرنسية وقتل وجرح عدد من التجار على يد أهالي مدينة كاركاس (Caracas) على الضفة الجنوبية لوسط السنغال.

وأمام خطورة الوضع والشعور بخدش كرامة الفرنسيين، لجأ والي فرنسا على السنغال بويط ويلوميز (Bouet Willaumez) إلى الرد بعنف بعد أن توصل بتعليمات صارمة في الموضوع من وزير البحرية. ومن النتائج السياسية التي ترتبت على هذا التدخل العسكري الفرنسي، اندهاش

---

109 ـ المرجع نفسه، ص. 478.

السنغاليين لحجم القوة وفعالية آلياتها، وتشككهم في قدرة حكوماتهم على حمايتهم.[110]

خلاصة القول، مع أنَّ الفرنسيين استفادوا من سياسة العصا الغليظة، فإنَّ الواقع كان يعكس أشياء أخرى، مثل عداء أغلبية السكان للفرنسيين وعودة بعض أعمال النهب والسلب، وشعور فرنسا من جهتها بالغبن والدونية لاستمرار سريان أداء الضرائب العرفية من الناحية القانونية، مما كان يحتم على حاميتها بالمنطقة التزام الحذر على الدوام. وهذا ما كان يتطلب اعتمادات مرهقة من جهة، ويقلل من أرباح التجار الفرنسيين بالمنطقة، ويضع المشاريع التي كانت تراهن عليها في السنغال كف عفريت من جهة أخرى، مما يعني أنَّ الأمور إلى حدود سنة 1850م، وقبل مجيئ فيديرب إلى السنغال سنة 1854م لتحمل مسؤولية الوالي الفرنسي بها لم تكن قد أخذت طريقها في غرب إفريقيا كما تطمح إلى ذلك فرنسا. وهذا ما دفع بالدوائر الحكومية المعنية إلى الانكباب بجدية على دراسة هذا الملف بناءً على تقارير ولاة المستعمرة السنغالية وتجارها، لاستخلاص العِبر، وتقييم الحصيلة والنتائج من جهة، والوقوف على أهمية المشاريع التي خططو لها سابقاً، والمقترح انجازها مستقبلاً، ومعرفة الصعوبات المادية والسياسية والميدانية التي تعرقل تقدم الاستعمار الفرنسي في نهر السنغال.

110- La Sénégambie du XVe au XIXe siégle, p. 75.

طبيعة المشاريع الاستعمارية والآفاق المستقبلية وصعوبات التطبيق (1826ـــ 1854م):

تؤكد معظم المصادر والوثائق الفرنسية التي تناولت هذا الموضوع، وبناء على تقارير ومذكرات حكام سانت لويس منذ القرن 17م، أنّ المشروع الرئيسي في مخطط السياسة الفرنسية في نهر السنغال، كان يهدف بالدرجة الأولى إلى استكشاف مناطق أعالي نهر السنغال، مثل بلاد كلام (Galam) ذات الموقع التجاري والزراعي المهم، وبامبوك (Bambouk) الغنية بمعاجم المعادن النفيسة مثل الذهب، مرورا ببلاد فوتاتور التي تشكل جزء النهر الأسفل والأوسط ذات الغنى الفلاحي.[111]

وكانت فرنسا مصرة تحقيق هذا الهدف مهما كلفها الثمن، لقطع الطريق على المنافسة الإنكليزية التي كانت تقهرها. هذا المشروع هو الذي سخرت له بعثات كانت فاشلة في معظمها، وأهمها بعثة شاسيتلوس (Chastellus) وبريديف (Brédef) سنة 1817م، وبعثة ميلاي (Mélay) سنة 1818م، وتنقلات البارون روجي الناجحة نسبيا عبر نهر السنغال ما بين عامي 1822ـــ 1826م، لكن مشاكل وأسباب اعترضت فرنسا في المنطقة وحالت دون تحقيق أهدافها إلى حوالي منتصف القرن 19م.

فما هي إذاً أهم هذه الأسباب والمشاكل الكامنة وراء فشل المحاولات الفرنسية؟ وماهي الحلول التي يجب توفيرها؟

[111]- Saint-Martin, (Y), Le Sénégal sous le Second Empire op. cit., p. 61.

❖ التعصب الإسلامي أكبر عقبة:

يمكن تلمس بعض عناصر الجواب من التقرير الذي رفعه دورانتون (Duranton)، الذي استطاع أن يتجاوز مدينة باكل ونهر الفاليمي (Falemé) ويصل إلى أعالي نهر السنغال سنة 1826م، بعد أن قام برحلة في إفريقيا الغربية دامت ست سنوات، وحرر على إثرها مذكرة مطولة لوالي السنغال يعكس فيها الأفكار التي أوحت له بها الوضعية التجارية والسياسية في الأقاليم التي زارها. وأول ملاحظة تثير الانتباه في هذه المذكرة، انطباعه السيئ عن التكلور (Toucouleurs) الذين يشكلون أغلبية سكان السنغال، وسخطه الكبير عليهم. ولذلك فهو يقترح تغيير السلطة الحاكمة في فوتاتور، وتعويضها بسيادة البلاد القدامى من الدينيانكي (Dénianke) بغية إعادة نظام أسرة السيراتيك (Siratiques) الوثنية، وهو النظام الملكي الذي كان يحكم البلاد قبل النظام الإسلامي.[112]

وبهذه الطريقة يرى دورانتون أنه يمكن النيل من غطرسة التكلور والحاق ضربة موجعة للإسلام، لتتاح له الفرصة بذلك لإملاء المعاهدات التي تخدم المصالح الفرنسية، على الملك الذي سيدين للفرنسيين بعرشه.

هذا الموقف المعادي للمسلمين هو الذي عبّر عنه ــــ أيضا ــــ بويط ويلوميز (Bouit Willaumez) والي فرنسا على السنغال منذ شهر فبراير 1843م بالقول: "إنَّ التعصب الإسلامي الذي بدأ يختمر هناك سيجعل من التنازلات لصالح نفوذنا بالسنغال أمراً خطيراً".[113]

ومع ذلك فإنه يلاحظ أنَّ هذه العوائق لم تثنِ فرنسا عن مواصلة تنفيذ خططها، خصوصاً بعد النجاح النسبي لبعثة رافنيل؛ الذي تمكن أثناءها من

---

[112] ــــ أحمد الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، م.س، ج. 2، ص. 485.

[113] ــــ نفس المرجع، ص. 487.

زيارة مناجم ذهب بامبوك، وأخذ عينات منها خلال سنة 1843م. ولكن الأكيد كذلك، أنَّ مسألة فوتا ونظامها الإسلامي قد أتعبت فرنسا، بل وذهبت بحياة الكثير ممن ارتادوا المناطق الإفريقية بغية خدمة الأمجاد الفرنسية.

أما المشروع الذي يأتي في الدرجة الثانية من الأهمية بالنسبة لفرنسا، يتعلق بضرورة القيام بمزيد من الاستكشافات لمعرفة ما إذا كان بالإمكان ربط المستعمرة الفرنسية بالسنغال بالجزائر الفرنسية والمغرب. فقد كتب الرحالة رافنيل (Raffenel) سنة 1844م مخاطباً الرأي العام الفرنسي والحكومي بما يفيد أن استعمار السنغال يجب أن يكون بداية فقط لنظام استعماري شاسع قد تكون نهايته في يوم من الأيام أودية الأطلس ذات الجمال الباسم، ثم أضاف قائلاً: "**..لا بد في يوم من الأيام أنْ ترتبط إفريقيا الغربية بإفريقيا الشمالية حيث أعلام فرنسا، ليسند بعضها البعض، وليتأتى نشر مزايا حضارة بالغة الرقة عبرها**".[114] ولتحقيق هذا الهدف، يرى نفس المصدر أنه لا بد من العمل أولاً على تنحية الحاجز التكروري ونظام حكمهم الإسلامي.[115]

خاتمة القول، هذه هي إذاً أهم المشاريع التي كان يخطط لها الفرنسيون في غرب إفريقيا، وتلك هي العقبات التي اعترضتها. وقد لاحظنا أنَّ الحلول المقترحة ــ بشكل عام ــ تتفق على اللجوء إلى رهان الصرامة واستعمال القوة ضد الحُكام المسلمين. لكن هناك مشاكل ترتبط بالفرنسيين أنفسهم، مثل عدم استقرار الولاة في المستعمرة السنغالية، وتفاهة الاعتمادات المرصودة لهذه المستعمرة؛ بسبب مشاكل فرنسا الحربية الإقليمية والدولية، مما كان

---

[114] – Raffenel (A), 1846, voyage dans L'Afrique occidentale (1843-1844). Paris, p. 314.
[115] - Ibidem, p. 316.

يؤثر على الإدارة السياسية في الحسم بشكل جرئ في السياسة الواجب انتهاجها بغرب إفريقيا، وهذا يعني أنَّ سياسة الحزم ــــ المقترحة ــــ كانت بحاجة إلى حكومة قوية، وإلى وجود والٍ حازم في السنغال لمدة طويلة.

وما من شك، في أنَّ سياسة فرنسا تجاه السنغال و ما ارتبط به ستتغير بشكل جذري في اتجاه الحسم بعد أحداث الثورة الفرنسية سنة 1848م، التي أفرزت نظام الجمهورية الفرنسية الثانية الذي انبثقت عنه حكومة قوية، يتضح اصرارها من التعليمات الموجهة في نهاية سنة 1854م، ومما جاء فيها: "نحن سيادة النهر، ويجب على الخصوص أن نخلص أنفسنا من كل ما من شأنه أن يشكل مظهرا لضريبة تجبى من الحكومة، أو ابتزاز مفروضاً على التجارة".[116]

ستطبق بالفعل كل هذه التعليمات، وستتبنى حكومة الجمهورية الثانية كل الطروحات المتشددة التي وردت في رسائل وتقارير الولاة السابقين. وسوف لن نبالغ إن قلنا أنَّ النصف الثاني من القرن 19م كان كافياً لتحقيق كل أهداف فرنسا الاستعمارية بغرب إفريقيا.

ثانيا ــــ ردود الفعل المحلية: الحركات الجهادية

ألمحنا فيما سبق، أنَّ الوضع السياسي في السنغال اتسم بالفوضى بعد انهيار آخر الامبراطوريات الإفريقية المسلمة (سنغاي). وزاد التدخل الأوروبي من خلال التجارة الأطلسية في تأزيم الوضع خلال القرنين 1 7 و 1 8م؛ حيث استفحلت ظاهرة التفكك السياسي ، الشيئ الذي ساعد الزعماء والارستقراطيات المحلية المرتبطة بالنخاسة على إحياء القيم الوثنية،

---

116 ــــ أحمد الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، ص. 492، ج. 2.

والانخراط في بناء نظام سياسي واجتماعي جديد، اتسم بالعنف الاجتماعي وعسكرة السلطة.[117]

ومجموع هذه المعطيات على سلبيتها، وفرت أرضية خصبة لظهور زعامات روحية، حاولت جمع شتات المسلمين بالمنطقة بهدف إقامة دولة إسلامية قوية، قادرة على تقويم الأوضاع الداخلية المتدهورة، ومستعدة لمواجهة الضغط الأوروبي المتنامي والمستفحل.

في هذا الاطار، ظهرت حركة الإمام ناصر الدين (1637ـــ 1677م) في منطقة القبلة بالجنوب الغربي لبلاد شنقيط. وبالنظر إلى الارتباط التاريخي ما بين هذا المجال الصحراوي بالممالك الإفريقية الواقعة على الضفة اليسرى من نهر السنغال، فقد ترسخت الصلات الروحية والثقافية ما بين بلاد شنقيط وسكان حوض نهر السنغال. من ثمة، نفهم الصدى الواسع الذي وجدته حركة ناصر الدين في بلاده، وكذلك في المنطقة الشمالية من السنغال. وهذا ما شجع زعيم الحركة على إعلان الجهاد ضد الممالك الإفريقية الوثنية؛ بهدف حملها على الإسلام والوقوف ضد الزعامات المحلية التي احترفت النخاسة.[118]

وبوفاة ناصر الدين في إحدى حروبه ضد الإمارات الحسانية اطفأت شعلى الحركة، غير أنَّ إرثها العقائدي والسياسي انتشر بشكل واسع، وتواصلت في الممالك المتتالية في كل من بوندو وفوتا جالون وفوتاتور. يقول الباحث الأمريكي فيليب كرتين في هذا الصدد: "**إنَّ ظهور هذه السلسلة من الثورات الدينية التي بدأت بالجنوب الشنقيطي، واتبعت خطاً متصلاً في تماسها وتداخلها عبر الشريط الساحلي، يمكن أنْ يكون ظاهرة متميزة في حد**

[117] ـــ أحمد الشكري. "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص. 50.

[118] ـــ الشيخ محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني، م.س، ص. 35.

ذاته، وقد تكون له انعكاسات كبيرة على تأويل التاريخ الديني في غرب إفريقيا".[119]

وفي ما بين وفاة الإمام ناصر الدين وظهور حركة الحاج عمر على مسرح الأحداث، تواصلت حركية الانتفاضات السياسية، وكان للإسلام والطرق الصوفية دوراً كبيراً في تأطيرها. هكذا، ظهرت حركة إصلاحية إسلامية في مملكة بوندو عام 1690م بزعامة مالك سي، في حين قاد إبراهيم سامبيكي الثورة التي عُرفت باسم" ثورة الألمامي في فوتا جالون".

وخلال القرن 18م، تزعم سليمان بال[120] حركة جهادية في فوتاتور، حيث اعتبرت هي الأخرى امتداداً لحركة ناصر الدين. وقد استهدفت في بداية أمرها الإطاحة بالنظام الديانينكي ثم الحد من سيطرة بلاد شنقيط. وبتحقيق الهدف الأول، تمكن سليمان بال من السيطرة على بلاد فوتاتور بأكملها، وبذلك خلصَ الأهالي من الاضطهاد الذي طالما عنوا منه كثيراً، وبموازاة مع ذلك، اجتهد في إبعاد ضغط القبائل الشنقيطية، بل وطاردها إلى أن استشهد في إحدى معاركه سنة 1776م.[121]

وبعد هذه الفاجعة ـــ أي وفاته ـــ التي كادت أنْ تعصف بمنجزات سليمان بال، تقلّد أمور الحكم بعده الإمام عبد القادر (1729 ـــ 1807م)، لتشهد المنطقة بعد ذلك ميلاد دولة إسلامية قوية في فوتاتور.[122]

---

[119] - Curtin (Ph.). 1971. " Jihad in West Africa, early phase and inter-relations, in Mauritania and Senegal" , Jornal of Africa history, XII, No 1. p. 23.

[120] ـــ ستنتمي سليمان بال بن مالك إلى أسرة علمية. كانت له عدة تنقلات في السنغال، وحينما عاد إلى وطنه، أصبح صاحب دعوة وتمكن من قيادة ثورة ضد ملوك الدينيانكي الوثنيين. راجع: أحمد الشكري، "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص. 51.

[121] ـــ المرجع نفسه، ص. 52.

[122] ـ أحمد الشكري، "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، م.س، ص. 52.

وأمام هذا الزحف الإسلامي، اضطرت الإدارة الفرنسية لاستخدام جميع الوسائل المتاحة أمامها سواء منها المناورات السياسية أو المواجهات العسكرية لكسر شوكة مملكة فوتاتور، وساعدت بعض العوامل الداخلية، خاصة منها طبيعة بُنية النظام السياسي المعتمد، في هز أركان المملكة وزعزعة كيانها، وعلى الرغم من المحاولات التي بذلها الإمام عبد القادر لتدارك الأمر، فإنَّ استشهاده في إحدى المعارك ضد تحالف ضمّ كل من زعماء بوندو وكارطا عام1807م، وضع حداً لتطور تجربة هذه الدولة الإسلامية الفتية. الشيء الذي دفع بالمنطقة مرة أخرى في اتجاه دوامة من الفوضى السياسية والاجتماعية، مما سمح للإدارة الفرنسية من استغلال الموقف بهدف ترسيخ نفوذها بالمنطقة.[123]

والخلاصة التي تتأتى لنا من هذه الحركات الإصلاحية والجهادية فيما بين القرن 17 ومطلع القرن 19م، أنها وسعت دائرة انتشار الإسلام ببلاد السنغال، وعمقت الاحساس لدى الأهالي بانتمائهم لدار الإسلام. وما من شك، أنَّ الطرق الصوفية كان لها دور فعال وهام بهذا الصدد، خاصة منها الطريقة القادرية ثم الطريقة التيجانية، التي نهل معينها الزعيم الروحي الحاج عمر الفوتي.

123 ـ "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال" ، ص. 53.

الفصل الرابع

فيديرب وتكوين المجال الترابي لمستعمرة السنغال

1) فيديرب Faidherbe ومشروعه الاستعماري.
2) إستراتيجية فيديرب لتكوين المجال السنغالي .
3) تنظيمات فيديرب Faidherbe .

فيديرب Faidherbe ومشروعه الاستعماري

إذا كانت الفترة الممتدة ما بين 1817 – 1850م قد طغت عليها نزعة التوسع التجاري، فهي بذلك تمثل مرحلة انتقالية ما بين مرحلة المحطات التجارية، ومرحلة الإمبريالية الاستعمارية التي ستبدأ باريس في رسم خطوطها العريضة، ابتداء من عام 185م.

وإذا قمنا بتقييم لحصيلة الوجود الفرنسي بالمنطقة طيلة هذه المدة، فسنرى أنّ فرنسا لم تحقق مكتسبات سياسية تذكر على الساحة السنغالية؛ وذلك نظراً لغياب سياسة استعمارية واضحة المعالم، والصعوبات التي اعترضتها سواء على المستوى الطبيعي، أو البشري. ويجب علينا أن ننتظر بداية الإمبراطورية الثانية، لكي نرى استعمار السنغال قد أخذ صيغته النهائية، وذلك تحت حكم وقيادة فيديرب الذي خلف الكابتن بروتي.

– فيديرب (Faidherbe):

لا يمكن الحديث عن تاريخ السنغال الاستعماري، بدون إبراز الشخصيات الاستعمارية الفاعلة فيه. ومن بين تلك الشخصيات التي طبعت تاريخ السنغال بطابعها الخاص نذكر"لويس سيزار فيديرب "، حيث لم يتردد البعض عن وصفه بأنه مهندس السياسة الاستعمارية في إفريقيا الغربية، و أول من أرسى أطماع فرنسا في المنطقة، وبلور أهدافها الاستعمارية.[124]

فماذا عن هذه الشخصية ؟

[124] – Abd –El-Kader Mademba (captione), 1931, Au Sènègal et au Soudan française, Paris Ve , Librair Larose , P. 7

ولد بمدينة ليل (Lille) الفرنسية في 3 يناير 1818م، في أسرة مدنية متواضعة الحال، ودخل مدرسة البوليتكنيك في 1837- 1838م ليتخرج منها عام 1840م بترتيب 98 من 120، والتحق بالمدرسة العسكرية بميتز Metz بترتيب 19 من 20 . ولذا لم يكن يعلق أمالاً كبيرة على ترقيه في السلم الوظيفي كضابط لتأخر ترتيبه، و انعدام الثروة لديه. وكانت فرحته كبيرة عندما حول في عام 1843 إلى " مستغانم " بالجزائر، حيث شارك في حملات عديدة ، وبنى طرقاً و استصلح مراكز عسكرية ، فبدأ قادته يقدرونه تقديراً أفضل من ذي قبل. وعاد إلى فرنسا عام 1846 ليلتحق بوزارة البحرية و المستعمرات، واصطدم مجيئه إليها مع ثورة 1848، وقد بدأ تألقه الحربي مع تجربته في منطقة الأوراس والتخوم الصحراوية، حيث باشر بناء و إدارة " قلعة بو سعادة "، و تكوين " فرقة المدفعية الخفية في إفريقيا "، و أصبح يتكلم اللغة العربية، و شكل ذلك تحولاً ملحوظاً في حياته المهنية، إذ زاد من ثقته في نفسه و ثقة رؤسائه المباشرين به.[125]

وخاض إلى جانب الجنرالين Bosquet و St.Arnaud الحملة الشتوية عام 1851 بمنطقة القبائل بالجزائر حيث أصيب بروماتزم متأصل اضطره إلى العودة إلى فرنسا للعلاج ، وبعد عودته بأربعة أشهر، طلب " تحويلاً تشجيعاً مفيداً " إلى إحدى المستعمرات ، فعين في عام 1852 مديراً مساعداً للمنشآت التحتية في السنغال بتدخل من رؤسائه من الجنرالات. والتحق فيديرب بالسنغال في 6 نوفمبر 1852 حاملاً معه تجربة استعمارية غنية سيكون لها أثرها في تجربته المهنية بالسنغال و لا سيما ما اكتسب منها

[125] ــــ محمد المختار ولد السعد، 2002، إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703-1860م، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ج. 2، ص. 548.

في الجزائر خلال سنوات 44 – 1846 و 49 – 1852. وبرهن في السنغال على مقدرته على تحمل المشاق و صرامته في مواجهة خصومه أثناء رحلته في أعالي النهر، و إعادة قلعة بودور.

ويبدوا أن فيديرب كان على علاقة وثيقة مع كبار تجار سان لويس، ولا سيما مع دار" موريل بروم " الذي يقال أنه ارتبط معها بصلات قبل مجيئه إلى السنغال، وقدمت له الدعم المادي والمعنوي بعد تحويله إليها. فقد أشاد أصحاب هذه الدار بدور فيديرب في إعادة بناء قلعة بودور، و إنقاذ الموقف الفرنسي المزعزع. و طالب "مارك موريل" وهو كبير هؤلاء التجار في الثالث من يونيو 1854 في تلميح يشبه التصريح ، بتعيينه والياً على السنغال، فقال: " **إن أكبر خدمة يمكن تقديمها للمستعمرة هي أن يسحب عنا بروتي** *Protet*، **ويرسل إلينا عسكرياً من الجزائر، وعندما يتم حل المشاكل، نمنح وقتها والياً مدنياً**".[126]

ـــ برنامج فيديرب الاستعماري:

إنّ تعيين فيديرب على رأس الإدارة في سانت لويس جاء في وقت دقيق، وحساس بالنسبة لفرنسا؛ فمن جهة شهدت هذه الفترة تركيز النظام الإمبراطوري في شخص نابليون الثالث، ومن جهة ثانية، عزمت القيادة الفرنسية الجديدة على تنفيذ المخطط الاستعماري الذي تقرر عام 1850م.

وهكذا أوكلت هذه المهمة ـــ في أول الأمر ـــ إلى الوالي بروتي، وأمام تعذره في تنفيذها، أسندت إلى فيديرب، الذي لخصها الوزير في رسالته بتاريخ 8 دجنبر 1854م:

---

[126] ـــ ولد السعد، إمارة الترارزة..، م.س، ص. 549.

❖إنشاء مراكز على الضفة اليسرى لتكون نقط ارتكاز لأسلوب التبادل الجديد.

❖القضاء على محطات التبادل ، و إبدال أماكن بها يختارها التجار سواء على الضفة اليمنى، أو اليسرى.

❖وضع مملكة والو تحت الحماية الفرنسية، والقضاء على هيمنة الشناقطة.

❖إقرار حرية الملاحة في نهر السنغال، وإلغاء الإتاوات.

❖إلزام سكان الضفتين (الزنوج، والبيضان) بالاعتراف بسيادة حكومة السنغال .

❖الاهتمام بالسنغال الأعلى، ومحاولة خلق نقط ارتكاز لغزو السوق السوداني.[127]

جاء هذا المشروع كمحاولة تطبيقية لرؤية جديدة؛ تهدف إلى المحافظة على الوضعية المتفوقة لفرنسا التي فقدت كثيراً من وزنها بشبب فشل مشاريعها الاستعمارية في السنغال. وفي المقابل، قد كان فيديرب واثقاً منذ البداية أن تلك السياسة الجديدة ستضعه في مواجهة مفتوحة مع سكان الضفة اليمنى ولا سيما الترارزة ، إذ يقول في رسالته السابقة :" **... إن البيضان لا يريدون تغيير أي شيء مما كان قائماً، وبعبارة أخرى فهم يريدون أن نسدد لهم مبلغاً معيناً عن كل سفينة حسب حمولتها سواء أكان فيها علك أم لا . وقد ظل محمد الحبيب يؤكد على الدوام، ولحد الساعة، أن أي شيء لن يتغير بالنسبة للضرائب العرفية و لمحطات التبادل ما دام حياً** ".[128]

---

127 ـــ عبد النبي السفيوي، "الاستعمار الفرنسي في السنغال"، م.س، ص. 134.

128 ـــ ولد السعد، إمارة الترارزة..، م.س، ج. 2، ص. 552.

وبعد أن استعرضنا لأهم ما جاء في مشروع فيديرب الاستعماري ، يمكننا أن نلاحظ أن القوة هي العنصر الأساسي فيه، وخير دليلنا على ذلك ما جاء في قول فيديرب: " **أعتقد أنه ليس أمامنا سوى طريق واحد هو أن نعمل ما نريد عمله ، ولنحارب من يعارضنا** "[129]

أما بخصوص الوضعية السياسية في السنغال وقت مجيء فيديرب فيمكن تلخيصها على النحو التالي :

- إمارة والو في الضفة اليسرى لنهر السنغال؛ وقد امتدت من مصب النهر حتى "داجنا"، فكانت تحت سيطرة قبائل الترارزة الموريتانية .
- مملكة كايور التي امتدت من سانت لويس حتى جورية Gorèe.
- مملكة السرير في جنوب كايور، وفي منطقة بئول .
- في أقصى الجنوب ممالك سين، وسالوم .
- فوتا السنغالية التي امتدت من "داجنا " حتى Nguèrer ، وانقسمت فوتا السنغالية إلى عدة مناطق أهمها ديمار Dimar وتور Toro.

[129] — Georges (H), 1932, Louis Faidherbe, Paris, p. 37.

إستراتيجية فيديرب لتكوين المجال السنغالي

سبق وأن رأينا بأن تعيين فيديرب جاء مواكباً لطموح فرنسا، وسياستها التوسعية الجديدة في المنطقة؛ فقد انتهجت الإمبراطورية الثانية سياسة أكثر نشاطاً في إفريقيا منذ منتصف القرن 19م، وتميزت سياسة نابليون الثالث بأنها سياسة توسعية في القارة، فسعى لربط المستعمرات الفرنسية في الجزائر مع مستعمرة السنغال في غرب إفريقيا.[130]

فماذا عن هذه الإستراتيجة التي قادت إلى تحويل السنغال من مستعمرة تجارية إلى مستعمرة عسكرية ؟

1) احتلال والو والصراع مع الترارزة (1855 - 1858م):

أصبحت مشكلة مملكة والو (Ouallo) منذ استرجاع سانت لويس عام 1817م تحتل موقع الصدارة في اهتمامات الأوساط الاستعمارية، وقد تزايد الاهتمام بهذه "المشكلة" بعد التحولات التي عرفها المحيط الفرنسي منذ 1848م الذي أصبح ميالاً لاستخدام جميع الوسائل لجعل هذه المنطقة محمية فرنسية.

إذا كان بروتي قد فشل في تحقيق هذا الهدف، فإن فيديرب أعطى ديناميكية جديدة لسياسة الغزو التي نادت بها الأوساط الاستعمارية في باريس، وسانت لويس، والتي تلخصت في رسالة وزير البحرية، والمستعمرات التي سبق ذكرها. يأتي هذا التحول إذاً في ظل ظروف محلية،

130 ___ Edgar (S), 1898. Africa in Nineteenth Century. London: Seeley Service. p. 291.

وإقليمية جد متوترة؛ تمثلت على الخصوص في استفحال ظاهرة الانقسامات السياسية في الممالك النهرية، وتزايد ضغط الإمارات البيضانية عليها. بيد أنَّ هذه الأوضاع قد ارتكز عليها فيديرب للإسراع باحتلال المنطقة ، حتى يجعلها قاعدة خلفية، ونقطة ارتكاز لسياسته التوسعية، إلا أنَّ هذا التوجه بالطبع، لم يكن من السهل تحقيقه بسبب رفض كل من زعماء والو و الترارزة المساس بسيادتهم الترابية .[131]

كانت الخطوة الأولى في تلك الحرب هي الإجهاز على قبائل الترارزة في الضفة اليمنى من النهر، وأخذها على غرة، ويحدد فيديرب في تقريره عن ذلك الهجوم إلى وزير البحرية والمستعمرات، فيقول فيه:" قامت قبائل أهل الكبلة بالعبور – كما هي العادة في السنوات الأخرى – إلى الضفة اليسرى بخيامها وقطعان مواشيها خارقة بذلك خرقاً صارماً الاتفاقيات بهذا الشأن، وبما أن هذه القبائل كانت ما تزال على ضفاف النهر، فقد قررت الاستحواذ عليها معاً مجتمعة، وكان ذلك ممكناً بفضل توفر العديد من السفن البخارية . فلو انتظرت مجيء أمير الترارزة و طلبت منه إخلاء " والو "، لاعتبر ذلك الزعيم المتعالي القوي جداً ذلك الطلب مجرد فضول ساخر. فمحمد الحبيب لا يتولى اليوم تعيين أمير البراكنة فحسب، بل يدعي تعيين داميل كايور[132]، و يقوم أبنه أعلى بإهانة ملكة والو في عقر دارها، وينتزع منها بالقوة ما يحلو له، ورغبة مني في إتباع جدي للبرنامج الذي رسمتم لي، و تصميماً مني على استخدام الوسائل الكفيلة بضمان تنفيذه، فقد أردت معاينة الهدف المتمثل في طرد البيضان الفوري من " والو ".[133]

---

131 ــــ السفيوي، "الاستعمار الفرنسي في السنغال"، م.س، ص. 135.

132 ــــ هو لقب ملك كايور.

133 ــــ ولد السعد، إمارة الترارزة ، م.س، ج 2 ، ص. 554 .

وانتهج فيديرب في تلك الحرب سياسة الأرض المحروقة بفظاظة، أسوة بنهج الجنرال بيجو (Bugeaud) في حربه ضد الأمير عبد القادر الجزائري، واتبع طريقته – وطريقة بوي من بعده – في استخدام وحدات مدفعية خفيفة تعززها وحدات بحرية، وفرق مشاة، وسباهية.

وبادر فيديرب بمهاجمة حي عزونة[134]، صبيحة 15 فبراير 1855م ، وتقول رواية فيدهرب الميال إلى تضخيم مكاسبه في تلك الحرب، أن ذلك الحي، المكون من 150 خيمة، قد استيقظ مبكراً و تنبه إلى حركة الجيش الغازي وفر أهله بمواشيهم تاركين الخيام والأمتعة وحوالي مائة رأس من الماشية تم نهبها وإضرام النيران في الخيام حتى أصبح ذلك الحي أثراً بعد عين. ووقع الفارون في كمين قتل منهم ستة أشخاص و أُسر حوالي 69 بين نساء وأطفال، وانتزع 700 رأس من البقر، ولجأ الرجال إلى عاصمة والو. وتزامنت هذه الغارة مع حملة نهب 600 رأس من الأبقار نظمها فيديرب ضد أحياء" تدغه" (المجاورة لسانت لويس) ، للحيلولة دون نقص الألبان ، واللحوم أثناء الحرب مع الترارزة.

من هنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة التي رسم فيديرب خطوطها العريضة في رسالة موجهة إلى وزير البحرية والمستعمرات يقول فيها : " لم نعد نرضى بأن تعتبر دول النهر ضرائب الدولة العرفية كإتاوات قهرية تدفع من قبلنا، إننا نود الممالك السنغالية، ولاسيما والو ".[135]

وبعد ذلك، جاء دور والو في 25 فبراير 1855م؛ حيث شن عليها فيديرب حملة كاسحة على مدى عشرة أيام، وتوعد زعماء والو اللاجئين في

---

134 ــــ هو حي صغير يقع على الضفة اليسرى لنهر السنغال .

135 – Archives de France , S.O.M. " نقلا عن: السفيوي ، " الاستعمار الفرنسي في السنغال

كايور قائلاً لهم: " إنكم لو تماديتم في التحالف مع البيضان، واتخاذ أعلى علي زعيماً لكم، فلا جدوى من دعوتكم إلى البلاد، ولا من بنائكم الأكواخ، والسقائف لأنني سأقوم بحرقها، كما أنه لا فائدة من قيامكم بزراعة الذرة، لأنكم لن تحصدوها، فقد قلت لكم، وأكرر، إن والو ستنفصل عن الترارزة، أو تظل صحراء جرداء".[136]

كذلك شن فيديرب في منتصف مارس من العام نفسه، حملة في وسط والو ضد تحالف محلي بقيادة " أعلى ولد محمد الحبيب "، حيث ظلت أراضي والو وقُراها غير المصاقبة للنهر منضوية تحت قيادته تقاوم الغزو الفرنسي، ولكن مع تفوق العدة العسكرية الفرنسية تمكن فيديرب من إخضاع والو في دجنبر 1855م، ليعلن أنّ والو أصبحت منطقة فرنسية.[137]

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: ما هو السبب، أو الدافع الذي كان وراء حرب والو ؟ يمكن أن نلخص ذلك بنقطتين:

- تغيير شروط التبادل التجاري مع الفرنسيين، و الحد من سيطرة البيضان.
- إنفراد فرنسا وحدها بتجارة المنطقة ولاسيما تجارة الصمغ.[138]

وقد لجأ العديد من سكان والو – بمن فيهم أسرة" تيدك " المالكة و حاشيتها – إلى الترارزة وظلوا يقاتلون إلى جانبهم و يرفضون الانصياع لتهديدات فيديرب و إغراءاته . فقد جاء في رسالة فيديرب إلى " ناتاكو"

---

[136] – NS . 13 G19: Lettre de Faidherbe aux gens du Ouallo, Louis, le ler mars 1855.

- نقلا عن: ولد السعد، إمارة الترارزة..، م.س، ص 555 .

[137] – David (R).1988, La guerre sainte d'Al-Hajj Umar : le Soudan occidental au milieu du XIXe siècle, Paris: Karthala, p. 4.

[138] – Boubacar (B), La Sénégambie du XVe au XIXe siècle , op. cit , p.263.

رئيس عبيد عرش والو: ".. بما أنكم لا تريدون طاعتي والعودة إلى والو تحت قيادتي ، فإنني أعتبركم منذ اليوم أعداء لي، و سألاحقكم أينما توجهتم و أعلن الحرب ضد من يأويكم ".[139]

ولإبعاد خطر الترارزة عن مستعمرة "والو" الجديدة، عمل فيديرب على إجلاء ما تبقى من المجموعات البيضانية إلى الضفة اليمنى، واعتبر النهر حاجزاً طبيعياً أنشأه الله تعالى؛ فقد كتب في رسالة بتاريخ 8 نوفمبر 1855م قائلاً : " ألم ير محمد الحبيب أن الله أجرى البحر، وجعله حاجزاً وفصلاً وحداً بين البيضان ، والسودان ؟ فلا بد من احترام حدود الله...".[140]

على الرغم من اعتقاد فيديرب أن تحرير والو سيكون أسهل من الحصول من الترارزة أو البراكنة على تخفيض الضرائب، التي يسددها لهم الفرنسيون آنذاك؛ فقد توهم أن حملاته التخريبية الكاسحة في والو قد أرهبت محمد الحبيب، فأرفق ذلك التعميم بشروط للصلح مع الترارزة تتلخص في :

- ® الاعتراف بكون الفرنسيين هم وحدهم حُماة والو.
- ® إلزام كل قافلة تروزية تعبر والو للتجارة فيها بالمرور بنقاط محددة سلفاً .
- ® عدم السماح لأي تروزي مسلح بعبور النهر، أو لأي حي بيضاني بالإقامة على الضفة اليسرى.
- ® يتولى والي السنغال ضمان أمن القوافل التجارية التروزية.

كان رد محمد الحبيب على ذلك قيامه بهجوم جزئي على سان لويس في 21 إبريل 1855، وكاد أن يستولي على قلعتها الحصينة لولا المدفعية

[139] ـــــ ولد السعد، إمارة الترارزة، م.س، ج. 2، ص. 555.
[140] ـــــ نفس المرجع، ص. 557.

الثقيلة في صد المهاجمين، وقد طال أمد تلك الحرب أكثر مما كان الفرنسيون يتصورونه لتصميم البيضان على الدفاع عن مصالحهم المادية، والمعنوية المهددة ، وعدم ملائمة الوسائل الحربية الفرنسية مع حركية البيضان المجالية الواسعة، كل ذلك دفع بفيديرب في دجنبر 1856 ، لتقديم خطة للتعامل مع الأوضاع المتردية في منطقة النهر للوزارة يتصدرها السلام مع الترارزة، وقد أقر الوزير تلك المقترحات معرباً عن اعتقاده ؛ قائلاً: " إن الوقت قد حان لمنح السلام مع الترارزة ، مع ضرورة أخذ كل الاحتياطات لجعل ذلك السلام حقيقياً ".[141] مع ذلك، فإن الحرب بين الجانبين لم تتوقف، إلا في عام 1858م؛ حيث تم التوصل إلى اتفاق مع الترارزة في 18 مايو 1858م، ومع البراكنة 10 يونيو من العام نفسه .

من الملاحظ على هاتين الاتفاقيتين أنهما أمليتا من الجانب الفرنسي، أي كان الطرف الآخر مجبراً على توقيع معاهدة الصلح. ولكن ما هي أهم النتائج التي حققها فيديرب Faidherbe على الساحة السنغالية ؟ يمكن إجمالها بما يلي :

® إن الانتصار على والو، حقق للدولة الاستعمارية حلماً طالما راود الساسة الفرنسيين على اختلاف مشاريعهم، ردحاً من الزمن .

® أصبحت فرنسا سيدة الموقف في الضفة اليسرى للنهر، وأنهت السيطرة التروزية.

® صدود الإنجليز عن المنطقة، وانتهاء تنافسهم مع الفرنسيين على تجارة العلك .

---

[141] ـــــ ولد السعد، إمارة الترارزة، م.س، ج. 2، ص. 559.

® اعتراف أمير الترارزة، ومن يخلفه بأن حكومة السنغال هي الحامية للبلدان الولفية في ديمار، اديلوف، كايور .

® إلغاء ضرائب السلطة الأميرية العرفية.

® إلغاء محطات التبادل القديمة، وتحديد دكانه، وسان لويس كمحطتين للتبادل.

® إنهاء الوجود السياسي – العسكري التروزي جنوب النهر، ومنع اجتيازه على من يحمل منهم سلاحاً.[142]

خلاصة القول، استطاع فيديرب باحتلال والو أن يدشن مرحلة جديدة من المسلسل الاستعماري، ليفرض السيطرة على الضفة اليسرى للنهر، ويمكن أن نعتبر عامي 1858 – 1859م فترة انتصاراته الكبرى؛ حيث كان وقع الهزيمة السياسية أبلغ بالنسبة للسلطة الأميرية التي أملى عليها الفرنسيون إرادتهم، لأول مرة، ووضعوا حداً لهيمنتها على والو، والممالك المجاورة، وما كانت تمثل من بعد سياسي، واقتصادي في علاقة الترارزة بمستعمرة سانت لويس الفرنسية. هذا المسلسل الاستعماري لم يتوقف، بل أزداد شراسة، وحدة؛ وذلك بإلحاق أغلب المناطق بوالو.

2) – ضم باكل:

يمكن تلخيص أهمية باكل بالنسبة للفرنسيين بما يلي:

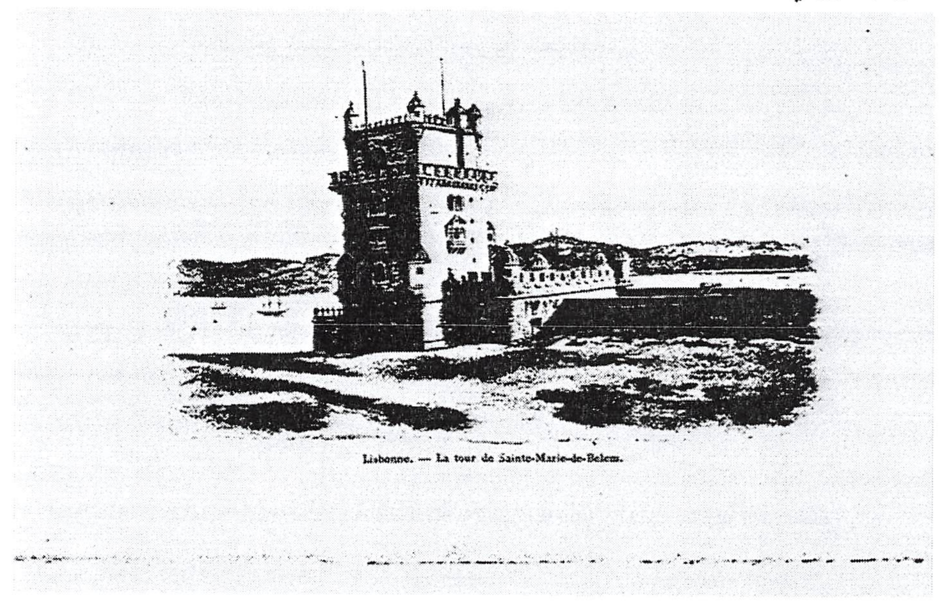
1) أهمية موقع باكل الإستراتيجي؛ فهي بوابة أعالي النهر بالنسبة للفرنسيين .

2) أهميتها التجارية، كونها محطة أساسية لتجارة الصمغ .

---

[142] ــــ نفس المرجع، ص. 571.

3) رغبة الفرنسيين في فصل ممتلكات الحاج عمر في كارطا، ودينجيراي.



(حصن باكل) نقلاً عن : La France d'afrique , op. cit, p. 212. Louis Songy ;

لقد ترتب على الحملات التي قادها فيديرب إلى الإعلان عن إلحاق باكل بالمستعمرة الفرنسية في السنغال، وذلك في 9 غشت 1855م. مباشرة بعد هذا الإعلان ، بادرت الإدارة الفرنسية إلى جعله واقعاً ملموساً باتخاذها مجموعة من التدابير في هذا الشأن؛ كتعيين "سيري سوليمان" (Cire Souleymane) الذي ينتمي إلى قبيلة ندياييي (Ndiayebès)، زعيماً لقرية باكل، وبالتالي أصبحت أراضي هذه القبيلة في ملكية الوالي الفرنسي،

كما وضع العلم الفرنسي أمام منزل هذا الزعيم للدلالة على تبعية القرية لفرنسا.[143]

من خلال ما سبق، نجد أنَّ مجموعة التدابير والإجراءات التي اتخذتها الإدارة الفرنسية في منطقة أعالي السنغال، والتي اتخذت من منطق القوة الوسيلة للتوغل داخل التراب السنغالي، قد عجزت عن تحويل السكان عن مفهوم الجهاد الذي نادى به الحاج عمر؛ لذا نجد فيديرب (Faidherbe) يتبع إستراتيجية الدبلوماسية لزعزعة الأنظمة القائمة حتى يسهل إخضاعها؛ عن طريق اتفاقيات ثنائية تخدم المشروع الاستعماري الرامي إلى إخضاع المنطقة ككل، حيث عبر عن ذلك بعض الباحثين بالقول: "إنَّ هدف فيديرب هو جعل مستعمرة السنغال متناسقة ذات ثوب واحد"،[144] فكانت المرحلة التالية هي إخضاع الخاسو.

3ــــ إخضاع خاسو:

أكمل فيديرب ترتيباته للقيام بحملته ضد الخاسو، والتي ترجع إلى الأسباب التالية:

- مراقبة تحركات الحاج عمر على الضفة اليسرى للنهر.
- جعل المنطقة بأكملها في متناول التجار الفرنسيين.
- لأن خاسو هي مدخل للبامبوك المشهورة بمناجم الذهب والفضة.[145]

وحسب اعتقاد فيديرب فإن هذا المخطط لا يمكن تحقيقه إلا ببناء قلعة جديدة في المدينة تكون بمثابة الركيزة الأساسية لفرض السيادة الفرنسية على

---

143 – Georges, (H), Histoire de la colonisation française , op. cit ,p. 203.

144 – Ibidem, p. 203.

145 ــــ بيرسون، ي ، 1980، " دول وشعوب سنغامبيا وغينيا العليا " ، ضمن تاريخ إفريقيا العام ، اليونسكو ج. 6، ص. 721.

المنطقة[146]. لقد عبأ فيديرب قوة كبيرة، لم يسبق له أن حشد مثلها من قبل، مكونة من خمس سفن حربية محملة بأكثر من 1200 جندي ومواد للبناء، وقد وصلت هذه الحملة قبالة المدينة في 12 سبتمبر 1855م ، حيث كان صامبالا[147] على رأس قواته في استقبالها. فكانت الفرصة مواتية لإعلان عدائه للحاج عمر، فتحالف مع الفرنسيين ضده، لكن هذا الموقف كان باهظ الثمن؛ إذ أرغمه فيديرب على توقيع عقد بيع أراضي المدينة لإقامة مراكز تجارية، أو أنشطة زراعية، أو حصون حسب تقديرات فرنسا. هكذا تنازل صامبالا لفرنسا بموجب البند الأول عن قطعة أرض مساحتها خمسة هكتارات، لبناء حصن عليها وأربعين هكتاراً على طول الضفة اليسرى للنهر.[148]

خلاصة القول، نجد أنالخاسو قد انضوت تحت السيادة الفرنسية، وذلك بعقد اتفاقية مع جميع زعماء الخاسو (شروطها أمليت من طرف فرنسا)، في 30 سبتمبر 1855م، فأصبح الفرنسيون هم أسياد الأراضي التي توجد عليها

---

[146] ــــ إن مشروع بناء حصن المدينة لم يكن وليد هذا الظرف، بل نادى به قبل العديد من رجال الإدارة الفرنسية، رغبة في توسيع النشاط التجاري لسانت لويس، ليس في السنغال الأعلى فحسب وإنما ليمتد إلى داخل القارة . إلا أن وزارة البحرية والمستعمرات كانت تتحفظ من هذا المشروع، وبقي معلقاً إلى حين إحيائه من طرف فيديرب، الذي عرف كيف يؤثر في الأوساط الاستعمارية ، بإثارته للخطر الذي يهدد فرنسا من طرف الحاج عمر، إن لم نعجل ببناء هذا الحصن . فيقول : " لقد اعتقدت أنّ قضية خاسو خاسرة ، إن لم نعمل على إيقاف زحف الحاج عمر ، لهذا توجهت نحو المدينة (في الخاسو) ، بكل ما استطعت أن أجمعه من القوات " راجع : السفيوي ، " الاستعمار الفرنسي في السنغال " ، م.س، ص. 150 .

[147] – **Juka Samabla** : هو سليل ملوك خاسو ، كان قد انضم إلى الفرنسيين و أقام تحالفا معهم ضد الحاج عمر ، تولى قيادة مدينة Médine ، و أصبح من المدافعين عن المصالح الفرنسية في أعالي النهر . راجع :

- Cissoko Sékéne Mody, 1988. Le Khasso face à L'empire Toucouleur et à la France dans le Haut Sénégal , 1854-1890 , Paris :L'Harmattan, P. 67.

[148] ــــ بدأت أشغال بناء هذا الحصن في 15 سبتمبر 1855 تحت شمس حرقة مما أدى إلى تسجيل العديد من الوفيات في صفوف العمال . راجع : السفيوي ، " الاستعمار الفرنسي في السنغال "، م.س ، هامش ص. 151 .

منشآتهم، و تعزز الحضور الفرنسي في السنغال الأعلى . وبعد سلسلة الضم هذه، نجد أنّ فيديرب يتبع إستراتيجية عسكرية أكثر قوة ووتيرة من ذي قبل، ومفادها نهج سياسة الترهيب، وذلك بهدف إكمال تطويق السنغال الأعلى، بعد اقتناعه بضرورة استعمال مبدأ القوة. فماذا عن هذه الإستراتيجية ؟ وهل كان لهذه السياسة صدى ودور في الإستراتيجية الاستعمارية في المنطقة ؟

تماشياً مع هذا المخطط قام فيديرب بخلق شبكة من التحالفات في وسط الزعامات المحلية، حتى يتسنى له تمرير خطابه الاستعماري بأقل تكلفة ممكنة، والتي ستشكل المبدأ الأساسي لاتفاقيات أخرى مع الزعامات الأخرى . وقد عرف فيديرب كيف يستغل تذمر أولئك الذين فقدوا امتيازاتهم، ممن أطاح بهم الحاج عمر في السنغال الأعلى؛ وذلك بالإغراء وتقديم الهدايا، وبذل الوعود بترقية من يقف إلى جانب الفرنسيين.[149]

وفي السياق نفسه، استخدم فيديرب سياسة الترهيب ضد أنصار الحاج عمر، الرافضين لبسط أي شكل من أشكال السيادة الفرنسية على المنطقة، وقد شملت هده السياسة معظم مدن وقرى السنغال الأعلى، التي أصبحت تحت رحمة الأسلحة النارية الفرنسية، ووصل الأمر إلى قيام فيديرب بحملة مسعورة ضد رجال الحاج عمر؛ وذلك بتنفيذ حكم الإعدام فيهم أمام مرأى الجميع.[150]

---

[149] – Monique Lakroum, 1992. L'afrique occidentale au temps des français, Paris XIII , P. 162.

[150] – إن الأمثلة على ذلك كثيرة ، نستقي منها ما يلي : في العاشر من أكتوبر 1855، تم قتل فقيه من أتباع الحاج عمر رميا بالرصاص و تم إحراق جثته علانية، والشهيد من أقرباء مصطفى زعيم حلوار مسقط رأس الحاج عمر الفوتي .و في الثالث من نوفمبر 1855، طرد الوالي فيديرب ، اثنا عشر فقيها فوتيا من سان لويس بحجة أنهم يحملون علامات الحاج عمر . و حذر السكان من مغبة مساعدتهم ، إن هم عادوا إلى المدينة .

4 ـــ الحضور الفرنسي في الجنوب (1859 - 1863):[151]

لإقرار الأمن في السنغال أقام فيديرب عدة حاميات عسكرية، كما عمل على إعادة الاستقرار لجزيرة الرأس الأخضر عام 1859، وقد أراد فيديرب ضم سين، وسالوم إلى السنغال، بقصد توسيع حدود المستعمرة من جهة الجنوب، ولكن هذه المهمة لم تكن سهلة المنال؛ فاعتمد فيديرب على إستراتيجية تقوم على ربط علاقات مع ملوك المنطقة، وبالتالي خلق التفرقة بينهم، لكي يضمن التغلغل الفرنسي السهل، والناجح على حد تعبير بعض الباحثين. لكن هذه السياسة لم يكتب لها النجاح إلى حد ما، فاعتمد على القوة ، وأرسل يهدد ملك منطقة سين، ثم اتجه بقواته صوب " فاتيك " (Fatike) في قلب مملكة سين، وهزم ملكها بحجة أنه يسيء معاملة التجار الفرنسيين، ثم بدأ يقوم ببعض العمليات العسكرية في منطقة سين، وسالوم، لإجبار حكامها على توقيع معاهدة حماية مع الفرنسيين، واستطاع عن طريق استخدام القوة أن يحصل على هذه المعاهدات.[152]

في مارس 1860م اتجه فيديرب نحو منطقة الكازامنس الأدنى، وذلك لوضع حد لغارات بعض القبائل على التجار الفرنسيين، وتهديدهم للتجارة في المنطقة، فقام لابراد (Laprade)، والكابتن دي فريجات (De Fregate) بإحراق قرى كارون (Caronne)، وتيونج (Thiong)، حيث تم إخضاع المنطقة للنفوذ الفرنسي.

هكذا نجد أن فيديرب عن طريق القوى العسكرية استطاع مد حدود مستعمرة السنغال، وتأكيد الحضور الفرنسي في المنطقة، وذلك بإجبار القوى

---

151 ـــ نقصد بمناطق الجنوب: ممالك: كايور، باول، سين، سالوم .

152- Georges(H) , Histoire de la colonisation française , op. cit ,p. 205 .

الوطنية على توقيع معاهدات حماية مع الفرنسيين. واستكمالاً للتوسع نحو الجنوب، تطلع فيديرب إلى مد النفوذ الفرنسي في منطقة هامة هي التي عرفت باسم أنهار الجنوب[153]؛ فبنى حصناً في يونيو 1860، وعين مندوباً فرنسياً في بونجو، كما حاول مد نشاطه نحو المناطق الداخلية من الساحل أي نحو فوتا جالون، وأرسل الملازم لامبير (Lambert) عام 1860 إلى المنطقة. ولكن وزير المستعمرات شاسلوب لم يسمح له باتخاذ خطوة إيجابية في هذه المنطقة، وذلك خوفاً من تشتيت جهود فرنسا، ورأى شاسلوب ضرورة التركيز أولاً على تدعيم السيطرة الفرنسية على السنغال، ولذلك لم تتخذ فرنسا سياسة إيجابية إلا بعد عام 1863.

ورغم ذلك انتشرت الوكالات التجارية في منطقة أنهار الجنوب على الساحل في كل من نوتيه وبونجو وميلاكوري، وحقق التجار مكاسب كبيرة بفضل تجارة الفول السوداني، وهكذا اقتصر نشاط فيديرب في منطقة أنهار الجنوب على التجارة فقط ، ولم يسمح له بالقيام بأية عمليات عسكرية، أما عملية التوسع في منطقة أنهار الجنوب، فجاءت على يد بينيه لابراد الذي خلف فيديرب.[154]

أما بخصوص جوري (Goreé) فقد انفصلت عن مستعمرة سانت لويس بموجب مرسوم إمبراطوري بتاريخ 1 نوفمبر 1854، و كانت التعليمات الوزارية لقادة جوري، قد ركزت على الدور البحري لهذه الجزيرة، كما أن الدور التجاري المستقر على أرضها، والذي يمتد نشاطه إلى داخل

---

[153] – شملت هذه المنطقة الشاطئ الأيمن لنهر الكازامنس وكاسيني ونونيه وبونجو ، وقد ألفت الأراضي الساحلية بما عرف باسم مستعمرة غينيا الفرنسية فيما بعد.

[154] – السفيوي، " الاستعمار الفرنسي في السنغال " ، م.س، ص 186 .

بلدان الساحل، قد انتقد بشدة هذه السياسة، وقامت الأوساط التجارية بالمطالبة بالتدخل لحماية المصالح التجارية داخل البلدان المعنية، بالإضافة إلى مطالبتها بتقوية الحضور الفرنسي أمام منافسة الإنكليز القوية ، إلا أن هذه السياسة الاستعمارية التي نادت بها الأوساط التجارية في جوري، لن ترى النور إلا بعد ضمها لسانت لويس عام 1859م، وتسلم أمر الإشراف عليها من طرف فيديرب.

وهذا يدفعنا إلى القول، بأن هذه الفترة 1859- 1854، التي كانت تتمتع فيها جوري باستقلالها الإداري، لم تحقق أي مكاسب سياسية أو ترابية لصالح فرنسا.أما بالنسبة للبعثات الكشفية التي أرسلها فيديرب، فنلحظ أنها اتخذت طرقاً جديدة مختلفة عن البعثات السابقة؛ فقبل قدوم فيديرب كانت معظم البعثات الكشفية تتجه من خليج غينيا نحو الشمال، ولكن هذا الطريق كلف فرنسا الكثير من الأموال بالإضافة إلى صعوبة عبور منطقة الغابات الكثيفة، ولكن منذ مجيء فيديرب إلى السنغال قرر أن يكون تقدم البعثات شرقاً انطلاقاً من سان لويس في السنغال، وذلك بغرض تدعيم السيطرة العسكرية عليها، وكان يؤمن بأن الكشف يجب أن يعقبه الغزو العسكري، فأرسل البعثات إلى كل من بامبوك، وغينيا في أعالي النيجر، واشتهرت هاتان المنطقتان بمناجم الذهب، وكان غرضه من هذه البعثات هو استغلال ثروة المنطقة تمهيداً لغزوها.[155]

---

155 – Richard Adloff; 1964, West Africa, New York, P. 145– 146.

تنظيمات فيديرب لمستعمرة السنغال

كان فيديرب في نظر كثير من الباحثين الغربيين يمثل النموذج الطيب بصفته قائداً حربياً، وواضع الأسس التوسعية للإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا الغربية. و نظراً لأهمية مستعمرة السنغال بالنسبة للسياسة الفرنسية في إفريقيا الغربية، بادر فيديرب بوضع الأسس التنظيمية للمستعمرة، والتي ستبقى أساس الإستراتيجية الاستعمارية فيما بعد. ونحن بدورنا سنقوم بعرض أهم هذه التنظيمات، والمتمثلة بما يلي:

- التنظيمات الاقتصادية.
- التنظيمات السياسية والإدارية.
- التنظيمات الثقافية والاجتماعية.

أولاً ـــ التنظيمات الاقتصادية:

إلى جانب عمله العسكري، رغب فيديرب بأن تكون فتوحاته اقتصادية . ويصوره بعض الباحثين أنه باعث النهضة الاقتصادية في السنغال، وأنه أعطى للبلاد إدارة منظمة، وكما قام بوضع البنية التحتية للمستعمرة من خلال بناء شبكة من الطرق والجسور[156]، وأنه وزع المزروعات على السكان، وشجع على زراعة القطن.

ولكن ألا يحق لنا التساؤل ما هي الغاية التي يرمي إليها فيديرب من وراء هذه التنظيمات؟ ألم تكن لخدمة مشروعه الاستعماري ؟

---

[156] – بنى فيديرب جسر يربط بين كل من سان لويس ، وجزيرة جات ندار ، كما شيد جسرا اخر يربط بين سان لويس وجزيرة سور ، وكما تم رصف الطرق بين روفيسك وتيس (Thiès)، وبين كل من داكار وسان لويس.

كذلك اهتم فيديرب بإنشاء خط للسكك الحديدية ، كوسيلة لوجيستيكية للتغلغل في إفريقيا الغربية. وفي عام 1857م تم بناء داكار، وكان لهذه المدينة أهمية اقتصادية على مختلف الفعاليات، حتى أصبح ميناؤها أهم ميناء في إفريقيا الغربية ككل. كما اهتم فيدهرب بإصدار جريدة بعنوان (*Le Moniteur Sènègal*) ([157]) ، كانت تحتوي على تقارير عسكرية وجغرافية واقتصادية، ومثلت هذه الجريدة صوت الحاكم ، وكما احتوت على إرشادات زراعية لمزارعي السنغال ، ومعلومات تجارية. كذلك أنشأ فيديرب مطبعة حكومية.[158]

كما اهتم فيديرب بالجانب المالي، حيث أنشأ بنك السنغال، و تم في المرحلة نفسها إنشاء غرفتين تجاريتين في كل من داكار، وجوري.[159]

خاتمة القول، كان العامل الاقتصادي حاضراً بقوة في إستراتيجية فيديرب، حيث عرف كيف يوظفه في خدمة المصلحة الاستعمارية، ويرجع هذا النجاح إلى التراكم الذي حصل عليه فيديرب من خبرته الطويلة التي حصل عليها من خدمته في المجال الاستعماري.

---

[157]ــــ كانت هذه الجريدة جهاز دعاية بكل معنى الكلمة ، بالغ فيديرب في استخدامه أثناء حربه مع محمد الحبيب والحاج عمر الفوتي . ولجأ أكثر من مرة إلى الدعاية الكاذبة في تلك الجريدة تبعاً لحاجة الوقت . حتى نشر بيانات كاذبة باللغة العربيـــة عـــن متمردين مسلمين مضى عليها عدّة أشهر ، وأعلن عن انتصارات لم تحقق أبداً ..". راجع: ولد السعد ، إمارة الترارزة ، م.س، ج2 ، ص. 551 .

[158]ــــ Louis Henrique ;Les colonies française . Paris 1899 . P 43- 44 .

[159]ــــ عبد الواحد أكمير ، " الحضور المغاربي – الأوربي في إفريقيا الغربية " ، في المستقبل العربي ، العدد 282 ، 2002 ، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ، ص. 133 .

Moniteur du Sénégal et dépendances ـفحة الأولى من العدد 111 من نشرة فيدير ب الدعاية الأسبوعية

Troisième Année - N°111 — Mardi 11 Mai 18[illegible]

MONITEUR
DU SÉNÉGAL ET DÉPENDANCES
JOURNAL OFFICIEL

Paraissant le mardi de chaque semaine.

AVIS. [illegible]

PARTIE OFFICIELLE.
NOMINATIONS ET MUTATIONS.

[illegible]

PARTIE NON OFFICIELLE.
NOUVELLES DU FLEUVE.

[illegible]

ثانيا ـــ التنظيمات السياسية والإدارية :[160]

إلى جانب التنظيمات الاقتصادية التي حظيت بمكانة هامة لدى فيديرب، كان اهتمامه بالمجال السياسي والإداري ؛ فماذا عن هذه التنظيمات؟

في إطار الجمهورية الفرنسية الثانية كانت السلطة تكمن في يد الحكومة المركزية، ومنذ عام 1848، فوضت هذه السلطة للمدن السنغالية؛ حيث تمارسها المجالس النيابية للمواطنين، هذا مع احتفاظ سلطات باريس بحق المراجعة، أو النقض والإلغاء.

بالنسبة للهيكل الإداري الذي عمل فيديرب على خلقه لإدارة مستعمرة السنغال، يأتي في قمة الهرم مدير مدني (بمثابة قائد مشرف) ، ويتمتع بتفويض شبه إجمالي في إدارة السلطة، وتوجيه القرارات، إضافة إلى أنه كان المشرف على جمع الضرائب لضمان سير الأمن، ويرافقه مترجم، ويكون قريباً من القائد، يجعله يمارس مهامه وسيادته على المناطق، كما أنه يستفيد من تدعيم موقعه وخدمة مصالحه.[161]

كذلك اهتم فيديرب بفئة الكتبة، الذين كانت مهمتهم كتابة تقارير المستعمرة، ومن الملاحظ أن فرنسا قد جعلت رسم السياسة من سلطة الفرنسيين وحدهم ؛ حيث شغلوا جميع الوظائف، وتولوا الحكومة وعينوا أنفسهم قضاة ورجال تعليم وصحة و زراعة ، وبهذا السياق تم الإبقاء على

---

[160] – يرى بعض الباحثين أن الأجهزة الإدارية تعكس في اتجاه الحكومات الأوربية المعنية، ولم تكن تربطها بالأوضاع الإفريقية إلا صلة غير مباشرة. فالسلطة الفرنسية التي كانت تتسم بالنظام المفرط في مركزيته. اعتمدت بصفة عامة على التأييد الضمني للزعماء المسلمين ، وكانت تتعامل بنفس الأسلوب مع مدن الهوسا ومزارعي إقليم السافانا . وكانت فرنسا تتبع أسلوب الحكم المباشر ، وعلى عكس الحكم الإنجليزي التي يوصف بأنه حكم غير مباشر ، وتستغل المستعمرة لدعم اقتصادها ، وكان الإفريقيون (رعايا) تميزهم فروق خاصة تحول دون اندماجهم الثقافي . راجع : دونالد وايدنر، 1976، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ، ترجمة شوقي عطا الله الجمل ، القاهرة : مؤسسة سجل العرب، ج. 2 ، ص. 277 – 279 .

[161] ـــ السفيوي، "الاستعمار الفرنسي في السنغال"، م.س، ص. 146.

الجيش باعتباره أساس الوجود الفرنسي في إفريقيا[162]، وكانت الثورة الفرنسية إحدى القوى التي ساعدت على استمرار سياسة الحكم المباشر.

لقد تنقلت تبعية المستعمرة بين عدة وزارات حتى استقرت أخيراً بوزارة المستعمرات ، وكان لديها مجلس استشاري يسمى (المجلس الأعلى للمستعمرات) ، وهو يتكون من وزراء المستعمرات السابقين، وحكام المستعمرات، وممثلين من وزارات الخارجية والحربية، والبحرية، وفي عام 1860 أصدر وزير المستعمرات أمراً بضم جوري إلى السنغال ؛ التي قسمت بدورها إلى ثلاث دوائر: باقل – جورية – سانت لويس.

ثالثا ـــ التنظيمات الثقافية والاجتماعية:

أولى فيديرب عناية كبيرة للجانب الثقافي، وخاصة نطاق التعليم؛ فأهتم بإنشاء المدارس الإسلامية[163]، وفي عام 1857 أصدر قراراً يقضي بإنشاء هذه المدارس، وفي الوقت نفسه انتشرت البعثات التبشيرية في السنغال.[164]

نلحظ أن فيديرب اهتم بإنشاء المدارس الفرنسية لخدمة أغراضه العسكرية، ولتأكيد الحضور الفرنسي على التراب السنغالي، وكذلك عمد إلى تمكين الرقابة الحكومية على المدارس القرآنية، ودراسة العادات والتقاليد السائدة في المنطقة، حتى أنه طلب من البعثات الكشفية التي أرسلها ضرورة

---

162 ـــ نهج فيديرب إستراتيجية تقوم على الاعتماد على القوى الوطنية في المجال الإداري والعسكري . خلال فترة حكمه عاونه بو المجدد في إدارة شؤون المستعمرة ، وكانت من ضمن أعضاء المحكمة الإسلامية التي ألفها فيديرب .

163 ـــ كان فيديرب حريصاً على احتواء الوطنيين والعمل على إرضائهم ، لخمة أغراضه ومشاريعه . ولهذا أمر بإنشاء هذه المدارس .

164 ـــ ما كان التبشير إلا مقدمة صادقة للاستعمار، وراندا وفياً لطلائع الزحف الاستعماري. ولو لا تسلل المبشرين إلى أفريقيا ونفاذ هواجسهم إلى أدغالها ، وتسرب تعاليمهم إلى حنايا سكانها ، لما رسخ الاستعمار كثيراً في المنطقة .

كتابة، وتدوين تقارير عن النواحي الاجتماعية في المناطق التي يصلون إليها. كذلك سعى إلى المعرفة الدقيقة، وإلى التعريف بتاريخ وحضارة البلد، بعد أن تعلم اللغة العربية، وعمد إلى إنشاء مكتبة ومتحف.

وفي عهد فيديرب تم تطبيق ما عرف بسياسة الدمج،[165] وتتم هذه العملية عن طريق (تثقيف وتربية وتعليم) طويل الزمن، لكن هذه السياسة لم تؤت الثمار المرجوة منها، وبدأ الكتاب الفرنسيون ابتداء من النصف الثاني للقرن 19 ، يوجهون النقد لهذه السياسة ، وبدأت تظهر أفكار جديدة ضد سياسة الدمج، وظهر ما يعرف بنظرية السياسة القائمة على المشاركة.[166]

في ضوء ما تقدم، نجد أنّ فيديرب نجح نوعا ما بتحقيق أهدافه الاستعمارية ؛ فوضع الملامح الرئيسية لمستعمرة السنغال، بعد أن وسع حدودها، وضم إليها أراضي جديدة، وأصبحت السنغال تمثل مستعمرة فرنسية بعد أن كانت مجرد وكالات تجارية منتشرة في كل مكان، ولكن السؤال المطروح هنا: ما هو موقف السلطة الإسلامية من هذا المستعمر، وهل استقبله الأهالي بالورود أم بالنار؟

---

165 ـــــ يرى بعض الباحثين أن مفهوم الدمج أو الاستيعاب كلاهما ترجمة للتعبير الذي تعنيه كلمة (Assimilation) إذ يرى الباحث شوقي الجمل أن المقصود بعملية الاستيعاب هو صبغ المستعمرات بالصبغة الفرنسية عن طريق فرض ثقافة الفرنسيين ولغتهم وتقاليدهم الاجتماعية والسياسية على الإفريقيين حتى يستوعبوها فيصبح تفكيرهم في مختلف نواحي الحياة تماما كالفرنسيين الأوربيين . وقد ترجمها باحث أخر بمفهوم المطابقة بمعنى إنها محاولة لجعل هؤلاء الإفريقيين صورة طبق الأصل عن الفرنسيين - راجع: شوقي عطا الله الجمل، 1998، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، القاهرة، منشورات مكتبة الإنجلو المصرية، ص. 537 ،

166 ـــ تهدف هذه النظرية الجديدة إلى تكوين مجموعة من الإفريقيين قادرين على استيعاب الثقافة الفرنسية ، وأطلق على هذه المجموعة اسم النخبة (Elite) ، والهدف من هذه السياسة أن يتم التعاون بين الإدارة الحكومية الفرنسية وبين هيئات وأفراد محليين ، في سبيل خلق زعامات إفريقيا تقود الشعوب و المجتمعات إلى طريق الحضارة والمدنية " أي هدف هذه السياسة تكوين فرنسة لهذه الزعامات والقيادات بدلا من الفرنسة الاجتماعية ". راجع : رونالد أوليفر ، و أنتوني أتمور،2005 ، أفريقيا منذ عام 1800 ، ترجمة فريد جورج بوري ، مراجعة عبدالله عبد الرزاق إبراهيم ، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ص. 169 وما يليها .

الفصل الخامس

المقاومة الإسلامية للاستعمار الفرنسي
الحركة العمرية نموذجاً

في هذا الفصل، سنتوقف عند ردود الفعل الوطنية من الوجود الفرنسي في السنغال، وسيتم التركيز على أهم حركة جهادية ، ألا وهي " الحركة العمرية" ، التي قادها الحاج عمر الفوتي والتي كانت بالأساس حركة إصلاحية دينية[167]، ثم تحولت إلى حركة سياسية عسكرية، ألحقت بالفرنسيين خسائر فادحة وأجبرت الساسة وأصحاب القرار الفرنسي على تغيير الإستراتيجية العسكرية في كثير من الأحايين، كما سنلاحظ ذلك في هذا الفصل.

[167] ــــ كانت حركات الجهاد التي اندلعت وصادفت مجيء الاستعمار الأوربي لمنطقة الغرب الإفريقي في القرن التاسع عشر، بمثابة الميلاد الحقيقي للحماس الديني والوعي السياسي والتضامن بين شعوب تلك المنطقة المسلمة. أظهرت المجتمعات الإسلامية استعدادا كاملا للانقياد لتوجيهات دينية بزعامة رواد تلك الحركات تحت راية الجهاد بغية إصلاح أحوالهم الاجتماعية والدينية، ومقاومة السيطرة الاستعمارية. فأوجدت تلك الحركات روحا ثوريا ونشاطا فكريا في كثير من القطاعات الاجتماعية من هنا وهناك.

التعريف بالحاج عمر الفوتي: نشأته ودراسته ورحلاته

– **نشأته ودراسته:** هو عمر بن سعيد بن عثمان التيجاني، طريقة المالكي مذهبا، الأشعري عقيدة، الفوتي أرضا، الطوري وطنا، الكدوي منشأ[168]، ولد عام 1797م، في قرية حلوار (Halawar) الواقعة في مقاطعة فوتا تور بشمال السنغال، لأبوين مسلمين ينتميان إلى القبيلة الفوتية الفولانية. وكان للبيئة التي نشأ وترعرع فيها الحاج عمر دورها في تكوين شخصيته الدينية و الجهادية.[169] حفظ الحاج عمر القرآن ولم يكن قد جاوز سن البلوغ بعد، وأطلع على شروحه ومعانيه تحت إشراف أخيه ألفا أحمدو (Alfa Ahmadu) ودرس اللغة العربية وعلوم القرآن بعناية، ودرس الصحيحين.

وسعياً وراء المزيد من المعرفة وأخذ العلم من أفواه الرجال، ترك بلدته وهو في سن الخامسة عشر لينتقل أولاً بين فوتا تور، قبل أن يشد الرحال إلى جنوب بلاد شنقيط. التي كانت له بها إقامة طويلة، أخذ خلالها على الكثير عن علمائها، وتعرف على الكثير من شيوخ التيجانية في تشيت. ومما لا شك فيه أن الفترة التي قضاها بعيداً عن وطنه وسعت أفق مداركه، كما أن التدريس شحذ عزيمته على بناء شخصيته ووعيه بأهمية العلم ظاهره وباطنه. وهكذا يمكن القول إنه قبل رحيله إلى المشرق العربي، كان قد دخل مرحلة الشباب، وهو حافظ لكتاب الله العزيز متمكن من تعاليم الدين الإسلامي ومن

---

168 ــــ محمد الحجوجي، فتح الملك العلام في تراجم الطريقة التيجانية، مخطوط بخزانة خاصة بالرباط ، الترجمة رقم 43 . نقلا عن حسن الصادقي ، " أضواء على الحاج عمر الفوتي من خلال المخطوطات العربية " ، في ذكرى مرور مائتي سنة على ميلاد الحاج عمر الفوتي ، مرجع سابق ، ص. 219 .

169 ــــ أحيطت طفولة الحاج عمر بكثير من الروايات، حيث قيل أنه ولد ليلة شهر رمضان وأمسك من أخذ ثدي أمه طيلة الشهر من طلوع الفجر حتى غروب الشمس ، كما قيل انه أفحم شيوخه في الكتاب بأسئلة تفوق سنه .

قواعد اللغة العربية، وعلى إطلاع كامل بأهم المذاهب الإسلامية، خصوصاً المذهب المالكي.[170]

ويحدثنا الحاج عمر الفوتي في كتابه "**الرماح**" أنه كان معجباً كثيراً بقواعد الطريقة الصوفية وخاصة التيجانية، حيث اعتنقها وأخذ أورادها عن شيخه وأستاذه عبد الكريم الناقل.[171]

- رحلات الحاج عمر الفوتي إلى المشرق وتداعياتها:

قام الحاج عمر برحلة دينية ثقافية طويلة بدأها عام 1825م، كانت غايتها الأساسية زيارة بلاد المشرق وحج بيت الله الحرام. بالإضافة إلى أسباب أخرى جعلته يقدم على هذه الرحلة.[172]

سلك الحاج عمر طريق الصحراء الكبرى، وبذلك اجتازها حتى وصل إلى فزان، جنوب ليبيا بالتحديد عند مدينة تاجوراء. وكانت للمدينة مكانة عظيمة في الإسلام والعلم ، حيث أقام الحاج عمر في هذه المدينة، وألف هناك منظومته الشعرية في إصلاح ذات البين وسماها "بتذكرة الغافلين في قبح اختلاف المؤمنين"[173]، وبعد ليبيا توجه الحاج عمر صوب مصر، ونزل ضيفاً على الأزهر، حيث قضى في أورقته ومحاضره العلمية مدة من

---

[170] - Madina Ly-Tall, 1991, Un Islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle : la Tijaniyya de Saïku Umar Futiyu contre les pouvoirs traditionnels et la puissance coloniale, - Paris : L'Harmattan, P 79-80

[171] ــــ الحاج عمر بن سعيد الفوتي، 1988، رماح حزب الرحيم على نحو حزب الرجيم. على هامش جوهر المعاني، لعلي برادة، بيروت، ص. 230.

[172] ــــ من أهمها: حب العلم والمعرفة واستكمال الخبرة في مختلف أصناف العلوم الإسلامية، و زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى تردي الأوضاع الاجتماعية والسياسية في السنغال.

[173] ــــ كانت الغاية من تأليف هذا الكتاب حسم الخلاف الذي وقع بين حاكمي سكوتو وبورنو، وهو الخلاف الذي شهده أثناء مروره بتلك البلاد.

الزمن.[174] ومن مصر توجه إلى الأراضي المقدسة أي "مكة المكرمة " ، وكان ذلك في عام 1828م، ومن وقتها بدأ الحاج عمر بمرحلة الوعظ والاعتبار فيقول في مقدمة منظومته الشعرية:" **اعلم أني ما قصدت بهذه القصيدة إظهار منصبي في علم العروض والنحو والصرف والمعاني ، بل قصدي بها نفع المؤمنين الذين لهم اعتناء بإصلاح نفوسهم لا غيره".**[175]

وبعد أن تم حجه ومناسكه قدم إلى المدينة المنورة لزيارته صلى الله عليه وسلم، فكمل له المرام والتقى بشيخ يدعى محمد الغالي[176] بعد صلاة العصر، وذلك في مقام إبراهيم عليه السلام ، حيث مكث معه ثلاث سنوات وسلمه محمد الغالي كتابه "جوهر المعاني" قصد الإطلاع عليه ، حيث يقول الحاج عمر في ذلك: "**وجاورت معه تلك السنة في المدينة المنورة على سكانها أفضل الصلاة والسلام، وسلمت له نفسي وحالي وألقيت إليه القياد وبقيت أخدمه قدر ثلاث سنين ووجدت الأخذ عنه ولقنني الأذكار اللازمة ونظمني في سلك أهل الطريقة و اكتسبت منه الأنوار على وجه الشريعة والحقيقة** ".[177]

والجدير بالذكر هنا، أن الحاج عمر تمكن خلال السنوات التي قضاها في الديار المقدسة إلى جانب شيخه الغالي من إتمام تكوينه الروحي والعقائدي، فقد زاد في صقل معلوماته من جراء مجالسته لكبار العلماء والمشايخ في علوم الإسلام هناك.

---

[174] – في هذه الفترة اشتهر الأزهر بتدريس العلوم الرياضية والفلكية، وكان شيخ الأزهر أنذاك " محمد العروس " حيث جرى بينه وبين الطلاب والعلماء في الأزهر مناظرات في كثير من المسائل الفقهية.

[175] ـــــ الحاج عمر بن سعيد الفوتي، تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين، 1978، منشور ضمن الأدب السنغالي العربي ، لعامر صمب ، الجزائر، الشركة العامة للنشر والتوزيع، ص. 60.

[176] – محمد الغلي : مغربي الأصل، وأحد تلاميذ الشيخ أحمد التيجاني .

[177] ـــــ الحاج عمر الفوتي، رماح حزب الرحيم ، م.س، ج. 1، ص. 192- 193.

بعد أن استعرضنا مسيرة الحاج عمر الفوتي أثناء رحلاته التي طالت قرابة عقدين من الزمن، نود الوقوف عند قضية كان لها دور في تكوين شخصية الحاج عمر الجهادية، وأثرت أيضا على إستراتيجيته في فترة الجهاد ضد الممالك الوثنية والاستعمار الفرنسي، وهي كيف تمثلت الفائدة التي أكتسبها خلال رحلاته هذه؟

يمكن حصر آثار رحلات الحاج عمر على حياته في ثلاثة جوانب: الجانب العلمي، الجانب الروحي ، الجانب العسكري .

1. <u>**الجانب العلمي**</u>: إن ذهاب الحاج عمر إلى مصر، وتباحثه مع العلماء واتصاله بأورقة الأزهر، كان له فائدة علمية كبيرة، وخاصة تلك العلوم التي لم تكن تدرس آنذاك في إفريقيا الغربية، كالرياضيات والفلك. وكما استفاد الحاج عمر في فترة إقامته بموريتانيا، حيث التقى بالعديد من العلماء، فنهل منهم الكثير من المعارف، ووسع مداركه. إذاً كانت فترة رحلات الحاج عمر فترة مهمة في حياته الثقافية، حيث ألف العديد من الكتب، ومنها الرماح.

2. <u>**الجانب الروحي**</u>: فذهابه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والتقائه مع شيخه محمد الغالي المغربي، فملازمته له لمدة ثلاثة سنوات تعتبر نقطة تحول كبيرة في تفكيره الروحي؛ حيث قلده لقب الخليفة في الطريقة التيجانية من البحر الأحمر شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً.

3. <u>**الجانب العسكري**</u>: لقد تزامنت رحلات الحاج عمر إلى المشرق مع قيام العديد من الحركات الإصلاحية فيه، كالحركة الوهابية، مما أثر في شخصيته الجهادية، وأثر على إستراتيجيته أثناء فترة صراعه مع الفرنسيين.

وهكذا أدرك الحاج عمر أنه لا يمكن الحفاظ على الكيان الإسلامي في غرب إفريقيا دون قيام دولة إسلامية تكون قادرة على مواجهة الاستعمار الفرنسي، فسعى طيلة حياته لتحقيق هذا الهدف مستعملاً كل الوسائل بما فيها حربه ضد الممالك الوثنية.

جهاد الحاج عمر ضد الممالك الوثنية

قبل بداية الحركة الإصلاحية – الجهادية للحاج عمر، كانت البلاد تعيش حالة من التصدع السياسي والظلم الاجتماعي الشيء الذي وفر تربة خصبة لترعرع ونمو الحركة العمرية خاصة بين الفئات الدنيا، التي كانت تتطلع لمنقذ يصلح حالها ويعيد للإسلام والمسلمين مكانتهما.

بدأت الحركة العمرية نشاطها، أولاً ضد الممالك الوثنية، وثانياً ضد الاستعمار الفرنسي. ونحن سنقوم في هذا المبحث بعرض المرحلة الأولى من جهاد الحاج عمر.

أولاً ــــ الحرب ضد مملكة طامبا (Tamba)[178]:

يرجع السبب المباشر لانطلاق عملية الجهاد إلى الأوامر التي صدرت للحاج عمر من يامبا ملك طامبا، بضرورة الوقف عن استيراد الأسلحة التي كان الحاج عمر قد حصل عليها أثناء جولاته بالمنطقة، حيث وصل إلى كل من المستعمرات البريطانية في غامبيا و البرتغالية في غينيا بيساو وتسليمها للملك يامبا.

وهنا تظهر إستراتيجية الحاج عمر في الأزمات حيث استعمل الورقة الدبلوماسية عندما دخل في مفاوضات مع الملك المذكور، أمهلته بعض الوقت

---

178 ـــ شكلت هذه المملكة المحطة الثانية والحاسمة بعد رجوع الحاج عمر من المشرق . تقع هذه المملكة المالينيكية على الحدود الشرقية لفوتا جالون بين نهري البافنيك Bafing والتينكيسو Tinkisso . يرجع تاريخها إلى نهاية الربع الأول من القرن 19 ونظرا لأهمية موقعها المتميز أصبحت تراقب مناجم ذهب بوري وتتحكم بالطرق التجارية النشيطة بفعل إشرافها على مختلف الطرق القافلية المؤدية إلى السودان النيجيري ، والبلدان المطلة على الساحل والاتية منها في طريقها إلى الموانئ الأطلسية، موجهة بذلك ضربة موجعة لفوتا جلون على وجه الخصوص، التي كانت تستفيد من هذا المجال التي كان ملكا لها بالأمس القريب. راجع: أحمد الأزمي، الطرية التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19، م.س، ج. 2 ، ص. 502 .

لوضع آخر الترتيبات لمواجهة كل احتمال. فأرسل الملك Yamba وفداً، حيث شرح أفراد هذا الوفد للحاج عمر، الذي استقبلهم باحترام، موضوع قلق ملكهم.

وبدلاً من أن تعود هذه البعثة بالنتائج المرجوة لملك طابا، عادت بما زاد من غضبه، بسبب ما علمه من رفض جل مسى (Diali Moussa) للعودة مع الوفد إلى بلده، بالإضافة إلى تفضيله اعتناق الإسلام على الوثنية. وهنا نستحضر ما قاله جل مسى للوفد: " **قولوا له بأني اخترت المقام مع الحاج عمر عن المقام معه ، وإني أسلمت ودخلت دين الله وتركت دين الفجار**".[179]

كان هذا الحدث بمثابة كارثة ما بعدها كارثة، باعتبار أن ما قام به "جل مسى" يعتبر بيعة ومباركة سياسية، ناهيك عن النتائج الإيجابية التي ترتبت عن هذا الحدث لصالح الحاج عمر الذي حج إليه عدد كبير من وثني طامبا لاعتناق الإسلام. وأمام هذا الوضع المؤلم قرر يامبا (Yamba) إعلان الحرب على الحاج عمر، في بداية شهر ستنبر 1852م. فتَبع الحاج عمر إستراتيجية مفادها فرض حصار على مدينة طامبا، التي استعصت على المسلمين بسبب ضخامة أسوارها ، فكانت النتيجة تحقيق الانتصار الأول .

® **نتائج الحرب:**

-من الناحية الروحية دخول عدد كبير من سكان طامبا ومينيان في الإسلام، مما ساعد على تضخم جيش الحاج عمر .

-سيطرة الحاج عمر على منجم بوري، أهم منجم للذهب.

179 ــــ موسى كمرا، 2001، أشهى العلوم وأطيب الخبر، تحقيق أحمد الشكري، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ص. 34 .

-وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار غنائم الحرب النفيسة، فإنه يمكننا تصور مدى الرخاء الذي ينعم به كل من دار في فلك الزاوية التيجانية من عبيد و أحرار ارتموا في أحضان هذه الحركة، بسبب سخطهم على أوضاع بلدهم المزرية. فالعبيد بعد تحريرهم من قبل الشيخ التيجاني ودخولهم في خدمته، تفتحت في وجوههم كباقي زملائهم من الجنود الأحرار فرص الترقي للوصول إلى أعلى المراتب، روحياً وعسكرياً.

-كان لهذا النصر صدىً كبيراً في المناطق المجاورة، مما جعلها تفكر بدخول الدين الحنيف.[180]

بطبيعة الحال، إن هذا العمل لم يكن إلا جزءاً من المشروع المستقبلي الذي يفكر بتحقيقه الحاج عمر وهو تكوين دولة إسلامية مترامية الأطراف. ولكن هذا الأمر لم يكن بالسهل؛ إذ أن الطرف الفرنسي كان على إطلاع بكل ما يجري في المنطقة، إضافة إلا أن هذه الممالك لها باع طويل في الوثنية، وهي على جانب من القوة؟

ثانياً - إخضاع بلدان السنغال الأعلى دون الاصطدام بالقوات الفرنسية:[181]

يرجع أسباب ضم الحاج عمر لهذه الأقاليم إلى مجموعة من الأسباب من أهمها:

1) غناها بالمعادن النفيسة.

2) طغيان الكفر و الوثنية منها على الإسلام.

---

180 ___ أحمد الأزمي ، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي ، م.س، ج. 3 ، ص. 89

181 ___ من هذه البلدان : خاسو ، جديماخا Gidimak، بامبوك Bambouk ، والبوندو Boundu .

3) قرب سقوطها في أيدي الفرنسيين.

غير أنه من بين أهم تلك الأسباب، وقوعها في طريقه إلى بلاد كارطا المشركة ، والتي شكلت موضوع إخضاع سكانها للإسلام أحد أهم أهدافه الجهادية .

- **ضم بامبوك:**

انطلقت جيوش الحاج عمر إلى بامبوك في 8 يونيو 1854م، مروراً بطامبا، وفي يوم 14من نفس الشهر، عبر الحاج عمر مع جيشه نهر البافنيك، بنية إخضاع بلدة كونجان Kunjan، بسبب وقوعها في مفترق الطرق التجارية التي تربط السنغال الأعلى وكارتا بالمحيط الأطلسي، وهو موقع إستراتيجي مهم يسمح أيضاً بمراقبة كل بلدان الماندينك في الإقليم، علاوة على تحكمها في بامبوك برمتها.

ورغم الصعوبات التي لاقاها هذا الجيش بالنظر إلى الطبيعة المتضرسة المسالك، وتعرضه لبعض المناوشات من حين لآخر، فقد تمكن من تحقيق هدفه الأول بالاستيلاء على كونجان واستسلام حاكمها، ومبايعته للشيخ عمر في شهر غشت 1854. غير أن تمهيد ما تبقى من أراضي بامبوك في اتجاه الشمال لم يكن بنفس السهولة، فمن بين الأقاليم الكبرى التي مر بها بعد كونجان، جالافرو، وجوكيبا،وسيرمانا، وكينيبيا، وفاربانا.[182] وعلى اعتبار فاربانا أقوى إمارة وثنية بالإقليم، أخذ الحاج عمر يتهيأ لغزوها، وفي نفس الوقت سعى لاحتواء الموقف دبلوماسيا، فتمكن في نهاية المطاف من دخولها سلمياً في أكتوبر 1854م؛ بعد أن استمال زعيمها وكبار أعيانها.

---

[182] ــــ الأزمي ، الطريقة التيجانية في المغرب و السودان الغربي خلال القرن 19 ، م.س، ج 3 ، ص. 93 -94 .

بعد هذا النجاح عاد الحاج عمر مرة أخرى ليلعب بالورقة الدبلوماسية تجاه عدد من الإمارات، خاصة الإسلامية منها، فجاءته طائعة ومبايعة.[183] في حين استخدم القوة العسكرية ضد الزعامات الوثنية التي رفضت دعوته ، مثل باركا زعيم مكسانا، الذي انهزم في حرب خاطفة، دخلت على إثرها قوات الشيخ التيجاني بلدته. وبذلك أصبح الحاج عمر يبسط نفوذه على جل مناطق أعالي النهر.[184]

ـــ إخضاع كارطا:

بدأ الحاج عمر زحفه على كارطا مع بداية 1855م، بعد أن حصل على دعم الممالك المجاورة، بجيش قدر عدده في المصادر الفرنسية قرابة 15000مقاتل.[185] عبر الضفة الشمالية للنهر لشن أول هجوم ضد مساسي Massassi حاكم كارطا. ورغم أن المعبر الرئيسي للنهر كان محروساً من قبل القوات الوثنية، فإن الجيش الإسلامي لجأ إلى الخدعة باستعماله معبر آخر إلى الجنوب من بونكور Bunguru مما مكنه من الالتفاف حول عدوه والدخول معه في معارك متقطعة.

خلاصة القول، قادت هذه المعارك في نهاية الأمر إلى انتصار الحاج عمر، ودخول العاصمة نيورو Nioro في الفاتح من نوفمبر 1855م ، فأخذ يراسل كل أقاليم السودان الغربي الخاضعة له والغير خاضعة، ليخبرهم بما جد في أمره ، و بالفتوحات التي أنجزها تمهيداً لطلب المدد والسند من رجال

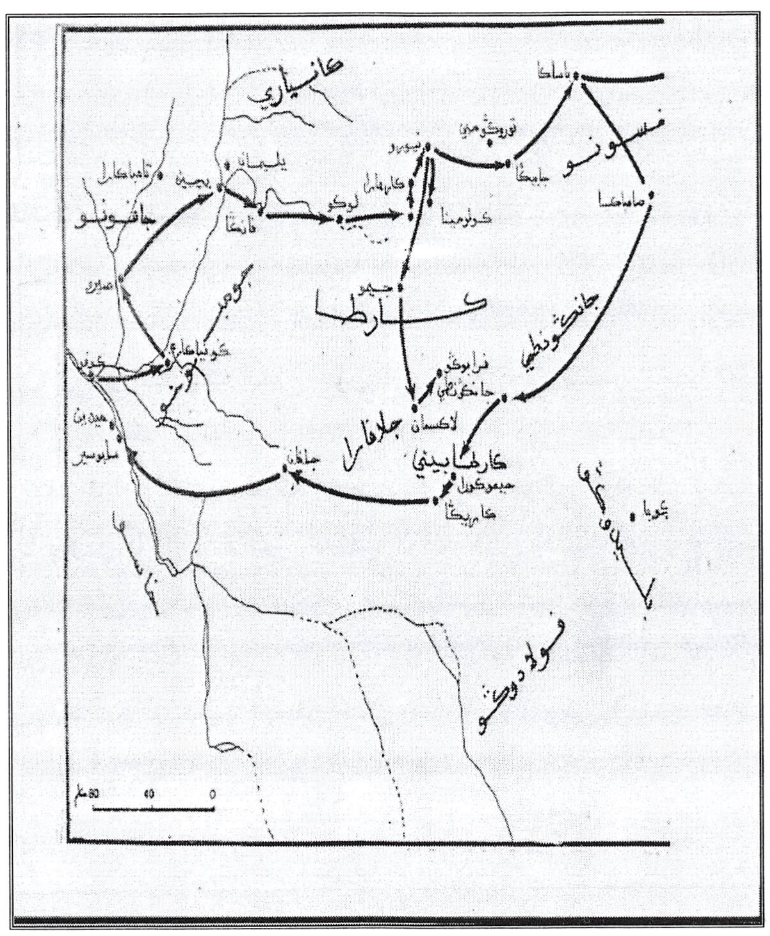
---

[183] ـــ نذكر منها على الخصوص البوندو والخاسو والكوي والكاميرا .

[184] ـــ أحمد الشكري. "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال". م.س، ص. 60.

[185] ـــ Desportes (V). 2001, Comprendre la guerre ; préf. du général d'armée Yves Crene . - Paris : Economica, p. 133 .

ومال. فبذلك استطاع تفتيت بنى وهياكل النظام الوثني البائد، فتزايد أتباعه، مما حفزه على متابعة ما بدأه من مسيرته الجهادية. فكانت المرحلة المقبلة وهي إخضاع سيكو Ségou ، فكيف تم ذلك ؟



عمليات الحاج عمر الجهادية ضد إمارة كارطا Karta الوثنية – المصدر : الأزمي، الطريقة التيجانية بالمغرب والسودان الغربي خلال القرن 19.

ثالثا ــــ إخضاع سيكو (ségou):[186]

كان الحاج عمر يعرف أنَّ مهمة إخضاع سيكو ليست سهلة، وتحيط بها الكثير من الأخطار منها: بعد المسافة الفاصلة بين نيورو Nioro عاصمة كارطا وبلاد سيكو ، وكثرة الأدغال بالأراضي التي لا بد من المرور منها، بالإضافة إلى عداء سيكو للإسلام.

رغم كل هذه التحديات قرر الحاج عمر الزحف في اتجاه سيكو في 12 سبتمبر 1859م وكله عزم في إلحاق هذه البلاد بدار الإسلام. وفي 20 نوفمبر 1859م ، أبدت قلعة ميركويا (Merkoia) مقاومة ضارية لهذا الزحف الإسلامي[187]، إلى أن سقطت هذه القلعة في 15 سبتمبر 1860 بأيدي المجاهدين بسبب عنصر المفاجأة الذي أحدثه المدفعان[188]، بالإضافة إلى عوامل أخرى ساعدت الحاج عمر في تحقيق هذا النصر ومنها دخول ملك سيكو " طوروكورو ماري " Torocoromari في الإسلام سراً .

بعد هذا الانتصار لم تعد تبعد سيكو إلا بحوالي 47 كلم ، فدخلها في يوم 9 مارس 1861 ، غير أنه في الوقت الذي بدأت فيه رياح النصر الشامل تهب على شيخنا في سيكو وصلته أخبار غير سارة تفيد بحدوث تقارب بين حكام مملكة سيكو الوثنية وحكام إمارة ماسيناالإسلامية[189] ، المعروفين بعدائهم لبعضهم البعض على مر الزمن وإلى الأمس القريب، والتي ستفضي في النهاية إلى تدبير عملية اغتياله.[190]

---

186 ــــ **سيكو** : تقع هذه المملكة الوثنية على ضفتي نهر النيجر الأوسط إلى الشمال من باماكو *Bamako* العاصمة الحالية لمالي. ويرجع تاريخ تأسيسها إلى حوالي منتصف القرن 18 .

187 ــــ **قلعة ميركيا**: هي قلعة إقليم بيليديكو Bélédégu المحصنة ، والتابع من الناحية الشكلية لسيكو .

188 ــــ هما المدفعان اللذان كانوا قد استولوا عليهما جيوش الحاج عمر من الفرنسيين في معركة نجوم Njum سنة 1858.

189 ـ **إمارة ماسينا** : تقع هذه الإمارة على ضفاف دلتا النيجر الأوسط إلى الشمال الشرقي من سيكو .

190 ــــ أحمد الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، م.س، ج. 3، ص. 150.

® إستراتيجية الحاج عمر:

من خلال تتبعنا لأحداث الجهاد العمري ضد الممالك الوثنية، نرى أنَّ الحاج عمر اتبع مجموعة من الإستراتيجيات والخطط ، ومنها أنه كان حذراً من أعدائه، ولا يطمئن بمجرد الانتصار على الخصم، بل كان يلاحقه حتى يقضي عليه، علماً بأنَّ المنهزم يفكر دائماً في الانتقام ، ولا يؤمن شره ما دام حياً. وكان يلجأ إلى إثارة روح التنافس بين جنوده. ومن هنا كان تقسيمهم إلى كتائب، وهذا مقتبس من الإستراتيجية النبوية التي كان يقصد بها حمل الفرق المكونة للجيش على التفاني في إبراز شجاعتها وتفوقها في ذلك على غيرها. وكان حرصه على ضمان تلاؤم جيشه يحمله على مشاورة أصحابه في الأمور الهامة ويدل على ذلك قصة" جل مسى " ، التي يقول الشيخ موسى كمرا بشأنها : " **فجمع الشيخ أصحابه وشاورهم في حال رجوع جل مسى إلى الكفار أم بقائه في الإسلام . فاختلف رأيهم فقال بعضهم: علينا رده لأجل أنا لا طاقة لنا على قتاله لقلة فئتنا. وقال بعضهم: ليس لنا رد المسلم إلى الكفار، ولو جاء ذلك الأمر على نفوسنا و أموالنا وذرياتنا فقال للرسل: سمعتم أقوال الجماعة إذا ذهبتم إلى" كمب " فقولوا له بانا لا طاقة لنا برجوع جل مسى إليه** ".[191]

خاتمة القول، نجد أن الحاج عمر كان اتبع إستراتيجيات مختلفة، وذلك بحسب الظرفية المتاحة له، وبحسب الإمكانيات المتوفرة من فترة إلى أخرى. وفي هذه المرحلة نجد أن أغلب مراحل جهاده كان هدفه مُنصباً لنشر الدين الإسلامي، ولم يكن له حد إلا بموته أو بإخضاع كل بلدان السودان الغربي للإسلام، وإلى هذه المرحلة كانت علاقاته مع الإدارة الفرنسية ذات طابع

---

[191] ـــــ موسى كمرا، أشهى العلوم وأطيب الخير في سيرة الحاج عمر، م.س، ص. 62.

سلمي، ولكنها كانت تراقب بحذر تحركاته، والانتصارات التي كان يحققها، وترى في ذلك خطراً يهدد مصالحها الترابية في المنطقة مما جعل الحاج عمر يغير من إستراتيجيته مع الفرنسيين من سلمية إلى عسكرية، وهذا ما سنتوقف عنده في الفقرة التالية.

جهاد الحاج عمر ضد الفرنسيين

لقد عرفت العلاقات بين الفرنسيين والحركة الجهادية مجموعة من التطورات والأحداث، اتسمت في البداية بالطابع السلمي، وتجنب الاصطدام مع الفرنسيين. وتبين لنا بعض من الدراسات أن الحاج عمر كان يرغب في نسج علاقات صداقة مع الفرنسيين، وأنه التقى مرتين بالسلطات الفرنسية، وبممثلي تجار سان لويس فكانت الأولى في بودور (Podor) وحلوار(Halwar)، في بدية 1847م، والثانية في صيف 1847م في مدينة باكل.[192]

ومما يؤكد حقيقة هذا اللقاء الرسالة التي أوردها لنا الباحث دافيد روبنسون، والموجهة من الحاج عمر إلى والي السنغال دوكرامون De-(Gramont)[193] بتاريخ 1847م، جاء فيها:" **لي معكم روابط محبة وثقة، وسأعمل على صيانتها على الدوام، إني مهتم بشؤونكم وستعلمون إن شاء الله عندما سأعود إلى السنغال، أنني رجل يمكن الاطمئنان أليه**".[194]

ولكن يبقى السؤال المطروح هنا: هل ستبقى هذه العلاقات على ما هي عليه؟ أم أنها ستشهد فتوراً في المراحل المقبلة؟

الغالب على الظن، أنَّ موقف الحاج عمر المداري للفرنسيين كان مرحلياً "تكتيكياً" في هذه المرحلة، ورغبة منه في الحصول على مساعدتهم أو

---

[192] – Carrére(F) et Holl(P), 1855, De la Sénégal française, Paris : Librairie de Firmin ,P. 195.

[193] – دوكرامون : شغل منصب والي السنغال خلال عامي 1847 - 1848م.

[194] - Robinson (D), 1988, La guerre sainte d'Al-Hajj Umar: le Soudan occidental au milieu du XIXe siècle, par Henry Tourneux et Jean-Claude Vuillemin, Paris : Karthala, p. 121.

حتى على حيادهم أو هما معاً في الفترة السابقة لبناء أسس دولته على الأقل. ولأنه في هذه المرحلة مشغولاً بحروبه على الجبهة الوثنية، ونشر الإسلام. ولكن هذا الأمر سيتغير بمقتضى مجموعة من الاعتبارات، التي أصبحت تشكل تناقضاً أساسياً، لا يمكن استيعابه إلا بتعميق الصراع وتجديده لإفراز حل يتماشى ووضعية كل طرف.[195] فالحاج عمر، لم يكن يقبل بوجود الفرنسيين على أرض السنغال وقد توعد أكثر من مرة بإجلائهم عن البلاد ، وكان يؤمن بأن هذا الغازي كافر لا بد من مقاومته. أما من جانب الإدارة الاستعمارية، فهي الأخرى لم تكن ترغب في وجود دولة إسلامية تعوق مشاريعها الاستعمارية. ولهذه الغاية عملت على تطويق وعزل الحركة العمرية الجهادية عن طريق فرض حظر على مبيعات الأسلحة، وتشديد الرقابة للحيلولة دون وصول الإمدادات البشرية التي ما فتئ الحاج عمر يطلبها من بلاد فوتا تور وأعالي النهر، فعملت الإدارة على شن حملة إعلامية ضد الحاج عمر وضد ما أسمته "بالتعصب الديني"، وقد جندت لهذه الغاية بعض الفقهاء لنقض أطروحة الحاج عمر، أمثال الشيخ " أبو المغداد".[196]

ونظراً لتعارض مصلحة الطرفين وعدم استعداد أي منهما للتنازل أو التفريط في السيطرة على بلدان أعالي النهر، فقد صار الاصطدام بينهما

---

195 ___ إن توتر العلاقات بين الطرفين بدأ قبل انتقال الحاج عمر الفوتي إلى بلاد كارطا، عندما أرسل هذا الأخير في بداية عام 1853 مبعوثه إلى باكل ليطلب من والي سان لويس" بروتي " Protet ، بيع الأسلحة للمسلمين . وأمام الرفض الفرنسي هدد مبعوث الحاج عمر بروتي بتدمير التجارة الفرنسية في أعالي النهر لعلمه بموقف شيخه الحقيقي الذي يقضي بعدم مسالمة الذميين. إلا إذا خضعوا و امتثلوا لتعاليم الكتاب والسنة ، و من أداء الجزية . وتماشياً مع هذا الخطر الذي استشعرته في حركة الحاج عمر ، فقد عمدت وزارة البحرية الفرنسية إلى إقالة بروتي، وعوضته بفيديرب كوال على السنغال. راجع: الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي ، م.س، ج 3 ، ص. 112 .

196 ___ **أبو المغداد :** هو مترجم الإدارة الفرنسية في سان لويس منذ عام 1855، كان قاضيا، وبقي من أهم أتباع فرنسا إلى حين وفاته في 24 أكتوبر 1880. راجع: السفيوي، "الاستعمار الفرنسي في السنغال"، م.س، ص. 159.

مسألة حتمية، وهو الاصطدام الذي سيؤدي إلى رجحان كفة الفرنسيين ميدانياً، وسقوط الدولة العمرية، ولكن هذا السقوط لا يعني انتهاء المقاومة، بل بقيت مستمرة حتى عام 1895م.

← المواجهات الفرنسية – العمرية :

يمكن تقسيم المواجهات التي جرت بين الطرفين والتي أجبر على إثرها الشيخ الفوتي إلى الهجرة شرقا إلى ثلاثة أقسام هي : مواجهات ما قبل 1857 ـــ مواجهات 1857 ـــ مواجهات ما بعد 1857.

أولاً – مواجهات ما قبل 1857م: [197]

قبل الحديث عن المعارك التي خاضها الحاج عمر ضد الفرنسيين نجد أنفسنا أمام سؤال يلح علينا وهو: كيف كون الحاج عمر جيشه وهو دائم التنقل من مكان لآخر؟ لقد استطاع الحاج عمر أثناء إقامته في سكوتو، ومن خلال المعارك التي خاضها مع الخليفة محمد بلو أن يكتسب الكثير من الأعوان المخلصين، كما أنّ الأسلاب التي حصل عليها من الحروب كانت تضم الرقيق الذين حررهم وضمهم إلى جانبه.

كان الحاج عمر يقسم قواته إلى ثلاث مجموعات: الطلاب الذين يناصرونه في نشر الطريقة، ثم الصوفيون من الرقيق وغيرهم من المسلمين الأكثر حماساً للجهاد، و أخيراً جماعات "التوبورو"؛ وهم الذين يتم تجنيدهم بالقوة، وكان الشيخ يكتسب أعواناً جدد في كل المناطق التي مر بها أو قام بغزوها.[198]

[197] – نفذت هذه الهجمات في غياب الحاج عمر الذي كان يوجد في كارطا .

[198] – Barry, (B), La Sénégambie du XVe au XIXe siècle, op. c it , p. 253 .

نفذ هذه الهجمات جنود من جيش الجهاد على سينوديبو (Sénudébu) وباكل (Bakel) في شهر فبراير 1855م، لعرقلة التجارة الفرنسية، مستغلين في ذلك ظرفية الفصل الجاف الذي تقل فيه كمية ماء نهر السنغال الضرورية لتنقل السفن الفرنسية الحاملة للجنود والمؤن والعتاد، لدعم مواقعها المحصنة، وقد تمكن أفراد هذا الهجوم من اعتقال جيرادو (Girardo) حاكم مركز سينوديبو.[199]

ردّ الفرنسيون على هذا الهجوم في شهر مارس من نفس السنة، عندما انطلقت حامية من مدينة باكل بمساندة عناصر من الموريتانيين لمطاردة المجاهدين في ضواحي باكل و سينوديبو، واستعملت المدافع لضرب القرى التي من المحتمل أنهم لجأوا إليها. غير أنَّ رد كتيبة الشيخ الحاج عمر جاء سريعا بعد تمكن أفرادها من إغراق سفينة بمياه نهر السنغال وأسر بعض ركابها، كما أنه في 26 أبريل من عام 1855م، شنَّ أنصار الحاج عمر انطلاقا من بلدة بوليبان هجوما، تمكنوا من خلاله من الاستيلاء على مؤن وقطعان ماشية سكان سانت لويس، الذين أتو في مهمة إلى سينوديبو.

أمام تزايد فعالية العمليات الجهادية ضد المراكز التجارية الفرنسية، عمد الوالي فيديرب على سانت لويس إلى اتخاذ إجراءين فعالين، أولهما إبرام اتفاقية مع كبار مدينة باكل ونواحيها، وإعلان هذه المدينة محمية فرنسية، وكل اعتداء عليها يعتبر اعتداء على فرنسا.[200] وقد تمكن فيديرب من الحضور شخصيا إلى عين المكان في شهر يوليوز 1855م، بعد أن عاد

---

[199] ـ أحمد الأزمي، 2009، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية خلال القرن 19م، فاس، دار ما بعد الحداثة، ص. 144.

[200] - Ly-Tall, Madina, 1991, Un Islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle : la Tijaniyya de Saïku Umar Futiyu contre les pouvoirs traditionnels et la puissance coloniale, - Paris : L'Harmattan, P. 284.

الفصل المطير وامتلأ نهر السنغال بالمياه؛ التي مكنت السفن من التقدم في اتجاه أعالي النهر.

أما الإجراء الثاني، فتحدد في المفاوضات التي أجراها مع جوكا صامبالا Joka sambala رجل مدينة (Médine) القوي من أجل إقناعه أو حمله على الترخيص للفرنسيين ببناء حصن في هذه المدينة الواقعة في موقع متقدم يعتبر مدخلا لأقاليم السنغال الأعلى. والنجاح في الحصول على هذا المكسب سيشكل نتيجة مشجعة في سلسلة من المحاولات الرامية إلى إضعاف خصمهم الحاج عمر الفوتي، و إحداث اختراقات في صفوف الحلفاء بلمنطقة. وقد انتزع فيديرب من جوكا صامبالا بالفعل هذه الموافقة؛ وشرع الفرنسيون استنادا على ذلك في بناء تحصيناتهم بمدينة (Médine)، بعد أن أصبحوا سادة عليها ابتداءا من شهر شتنبر 1855م.[201]

من جهة أخرى، عرف الوالي فيديرب كيف يستغل تذمر أولئك الذين فقدوا امتيازاتهم، ممن أطاح بهم الحاج عمر في السنغال الأعلى، وخصوصا إقليم الخاسو؛ عندما عرض عليهم توقيع معاهدة تحالف ضد عدوهم المشترك، وهي المعاهدة التي أبرمت بين الطرفين في شهر أكتوبر من نفس السنة.

وعندما نجح فيديرب في هذه المحاولة، لم يتردد في عرض تحالفاته على جهات أخرى بالإغراء وتقديم الهدايا، وبذل الوعود بترقية من يقف إلى جانب الفرنسيين. وقد نجح في هذه السياسة إلى حد كبير، إذ تمكن بالتدريج من كسب الأنصار والحلفاء إلى صفه، في كل بلدان أعالي نهر السنغال باستثناء إقليم بوندو، الذي استعمل فيديرب القوة ضده، وفرض بوباكر سادا

201 – الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، م.س، ج 3، ص. 115.

حاكماً عليه، يحكم رعاياه بدعم من فرنسا.[202] ورغم هذا التقدم الذي حصل عليه الفرنسيون في مقدمة أعالي النهر سياسياً وعسكرياً، لم يتخل رجال الحاج عمر عن مناوشة أعدائهم وتضيق الخناق عليهم، مهما كلفهم ذلك من ثمن، ولم يفقدوا الأمل في إقناع من تخلى عنهم وتحالف مع المسيحيين بالرجوع إلى غيهم. وقد وجدوا في رجال بوندو وجديماخا خير من صمد معهم في محنتهم، ولذلك مان رد فعل قوات سانت لويس صارما وقاسيا ضد جديماخا على الخصوص، بعد أن اطلقوا يد الموريتانيين يعيثون فيها فسادا بين القتل والسلب والنهب خلال شهر دجنبر 1855م.[203]

وعندما لاحظ فيديرب أن سياسة الحديد والنار أعطت ثمارها انتقل إلى مستوى أعلى من الجرأة، فأصدر أوامره إلى جنوده بتدمير كل القرى التي تشتمل على تحصينات عمرية، وكانت قرية ديجي (Dégé) وتحصيناتها العمرية، هي أول هدف شمله الهدم، ورافق عمليات التدمير هذه حملات عسكرية شنت ضد القرى التي رفضت الاعتراف بالزعماء الذين ينصبهم الفرنسيون.

وردا على هذه الاستفزازات والاعتداءات، قامت عناصر من جيش الجهاد بالهجوم على المراكز التجارية الفرنسية في سينوديبو وباكل. وعندما تحركت القوات الفرنسية للانتقام، هزمت في معركة مارسا يوم 30 يناير 1856م. غير أنَّ رد الفرنسيين على هذه الهزيمة جاء عنيفا باعتبار الخسائر الجسيمة التي الحقتها بالعدو في الأرواح ورؤوس الماشية، وتدمير المنازل. وقد ساعدهم في هذا الانتصار بعض العناصر الموريتانية، وانضمام عدد من

[202] – Ly-Tall, Madina, Un Islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle, op. cit, p. 289.

[203] ــــ أحمد الأزمي. العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص. 146.

السكان المحليين إليهم في بوندو، المتضررين من الضربات الفرنسية المتكررة، بعد أن أرسلوا إلى باكل ممثلين عنهم في 18 فبراير، قصد إبرام السلم معهم، وأداء قسم الوفاء.[204]

ولعل أخبار هذه الانتكاسات وعدم إحراز جيش الجهاد لانتصارات بينية ترهب العدو المسيحي هي التي جعلت الحاج عمر يغادر كارطا ويتجه صوب خاسو، على الضفة الجنوبية لنهر السنغال، حيث توجد مدينة (Médine) التي تتحصن بها قوات سان لويس ليشرف بنفسه على سير العمليات العسكرية ضد الفرنسيين قبل فوات الأوان.

إذاً كانت هذه المرحلة تمثل بدايات الصراع العمري الفرنسي، وما يلاحظ على إستراتيجية الحاج عمر فيها أنه اكتفى بإثارة سكان منطقة النهر ضد الفرنسيين، في إطار ما اصطلح على تسميته بالمقاومة المسلحة الداخلية "حرب العصابات"، وتشديد الخناق الاقتصادي على سانت لويس، عن طريق منع المتاجرة معهم وضرب المصالح التجارية الفرنسية أينما وجدت.

هذه الإجراءات وإن كانت ظرفية، فقد أثبتت فعاليتها، على إثر الخسائر المادية والبشرية التي تكبدها المستعمر، إلا أنها لم تحول دون وقوع مواجهة عسكرية بين الطرفين، التي جعلت الحاج عمر يغير في إستراتيجيته ضد الفرنسيين في المرحلة المقبلة من الصراع .

ثانياً – مواجهة أبريل 1857 وتجلياتها:

دارت هذه المواجهة في مدينة (Médine)، والتي كانت تحكم من قبل القائد بول هول(Paul holle)[205] ، وكان ذلك أثناء عودة الحاج عمر من

---

[204] __ Ibidem, p. 292.

[205] – يعتبر من المولدين الذين قدموا خدمات كبيرة للفرنسيين بالسنغال من عام 1823 – 1862م، تقلد العديد من المناصب، منها: قائدا عسكريا على باكل عام 1840، وحاكم مدينة Médine من 1855 – 1857، وكان لهذا القائد خبرة بما يجري على ضفتي نهر السنغال.

كارطا. واستعداداً لهذه المواجهة نزل الحاج عمر بـ كوندا (Kunda) الواقعة إلى الجنوب من مدينة (Médine) في منتصف شهر إبريل، وبها استقرت قيادته العليا وعسكر جيشه، الذي بلغ تعداده قرابة 150 ألف مجاهد حسب بعض المصادر.[206]

وفي 19 أبريل توجه جيش المجاهدين صوب مدينة (Médine) ليلاً، وفي صباح اليوم الموالي كان الحاج عمر وجهاً لوجه مع عدوه المحصن داخل أسواره، ودارت بين الطرفين معركة ضارية دامت ست ساعات، وتمكن خلالها المجاهدون من فرض الحاج عمر حصاراً على مدينة (Médine) التي كان يدافع عنها بول هول، واقتحام بعض حصون وقلاع المدينة، وكادت المدينة أن تسقط بيد المجاهدين حيث رفعت الراية الإسلامية، غير أنه مع مرور الوقت استطاعت القوات الفرنسية أن تحسم الموقف لصالحها بإحداث مجزرة فظيعة في صفوف المجاهدين، اضطر الحاج عمر إلى الانسحاب مع بقية جنوده على إثرها.[207]

تقدم لنا بعض الدراسات أسباب فشل الحصار، الذي عانى فيه المحاصَرون من نفاذ مخزونهم من المؤن و الذخيرة، إلا أن ارتفاع منسوب مياه نهر السنغال خلال شهر يوليو 1857 كان سبباً في نجاة المحاصرون، نتيجة وصول المساعدات إليهم، مما أجبر الحاج عمر على التخلي عن الحصار الذي دام ثلاثة أشهر.[208]

ورغم اعتراف العدو باستبسال المجاهدين، ورغبتهم في الاستشهاد، إلا أن هذه الهزيمة شكلت نكسة حقيقية وهزيمة مرة للحاج عمر، حملته ــ بدون شك ــ على تأجيل منازلة عدوه مرة أخرى، بعد أن اقتنع بأنه لا زال دون

---

[206]- David(R) : La guerre sainte d'Al-Hajj Umar, op. cit , P. 195.

[207] ــ أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص.150.

[208] ـــــ نفس المرجع، ص. 151.

مستوى رفع التحدي في وجه الفرنسيين. وقد حاول الحاج عمر أن يتقدم لهذه الهزيمة لرفع معنويات رجاله واسترجاع هيبته، مستغلاً في ذلك ما تبقى من شهور في الفصل الجاف الذي يحد من حرية تحرك السفن الفرنسية، فشنت قواته سلسلة من الهجومات ضد المواقع الفرنسية، أحدثت فيها بعض الخسائر فقط دون أن تحقق أي انتصار حاسم، نذكر من هذه الحملات على الخصوص هجوم 11 ماي 1857، ثم هجوم 4 يونيو من نفس العام.

ومرة أخرى يتلقى المجاهدون ضربات موجعة على يد العدو الذي رفع من إيقاع حملاته العسكرية عمودياً وأفقياً، وصار يركز من خلالها على أهم المواقع العمرية المحصنة، فحطم تحصينات كونجورو (Cunjuru) بخاسو قرب مدينة Médine) يوم 22 يوليو. هذه الانتصارات الفرنسية المتتالية خلال الفصل المطير جعلت الحاج عمر يفضل الانسحاب من خاسو ويأمر رجاله بالتخلي عن حصار مدينة (Médine) في شهر غشت 1857 لتجنب الأسوء.[209]

لكن السؤال الذي يفرض نفسه: إلى أين سيتجه الحاج عمر؟ وكيف سيكون رد فعله لمحاولة إنقاذ سمعة الجهاد و استرجاع نفوذه الذي بدأ يتلاشى في فوتا و أعالي نهر السنغال، بعد أن تمكن القوات المعادية من إخضاع بوندو وخاسو لنفوذها، بمساعدة حلفائهم مثل جوكا صامبالا و بوباكر صادا؟

لم يكن للشيخ الفوتي من حل أمام هذا الواقع، إلا التوجه صوب الجنوب أي إقليم بامبوك الذي لازال بعيدا نسبيا عن قبضة الفرنسيين ونفوذهم، لبعده عن مدينة (Médine) المحصنة، ولتشبث سكانه بهويتهم الإسلامية، وتعاونهم مع الحركة الجهادية.

---

[209] - Barry (B) , La Sénégambie du XVe au XIXe siècle, op. cit ,p. 258 .

أما احتمال الانسحاب إلى كارطا شمال شرق النهر، فلم يكن واردا بالنسبة إليه، لأنه انسحابه إليها في هذه الظروف يعني إفساد كل شيئ، واعطاء انطباع للعدو بأنَّ دولة الجهاد تخلت نهائيا عن بلدان أعالي نهر السنغال مرغماً.

اختار الحاج عمر، إذا الانسحاب نحو الجنوب وتوقف في بلدة كونجان التي تعتبر مدنها مقدسة كنيورو، والتي تتوسط المسافة بين دنكراي جنوبا، ومناطق النفوذ الفرنسي شمالا، وباكل وسينوديبو. وبها أقام مدة من الزمن، أشرف خلالها على بناء قلعة حصينة (طاطا)، ساهمت باسترجاع بعض من هيبته في المنطقة، وأعطته بعض الآمال بإمكان استدراك ما فات، عندما لاحظ أنَّ الأغلبية الساحقة من الرعايا في هذه الجهات لا زالت محافظة على العهد بنصرته، والوقوف إلى جانبه. كما أنَّ اختياره للانسحاب نحو كونجان في هذه الظروف الحرجة كان موفقا لما يتيح له من إمكانية المرور إلى إقليم بوندو، عبر نهر الفاليمي (أحد روافد نهر السنغال)، وهو إقليم نعرف مدى إخلاصه لقضية الجهاد، وأهمية الدور الذي لعبه لإنجاح حركة الحاج عمر منذ عبوره للمنطقة بجيوشه، قادما من دنكراي في اتجاه كارطا، فضلا عن أنَّ مجال إقليم بوندو الشمالي يتاخم بلاد فوتا، التي يرتبط شيخنا معها بروابط أسرية ودينية واجتماعية، يمكن توظيفها لصالح قضيته عند الضرورة.

خلاصة القول، بعد أن استعرضنا أهم محطات الصراع بين الجانبين خلال عام 1857م ، نجد أنه تميز بتفوق الجانب الآخر "الفرنسي" على الحركة الجهادية، لكن هذا لا يعني إخماد هذه الحركة، بل استمرت إلى حدود عام 1859م، عرفت خلالها مجموعة من الأحداث والتطورات.

ثالثا ـــ مواجهات ما بعد 1857م وتخلي الحاج عمر عن منازلة الفرنسيين مؤقتاً:

لقد شكل هذا الانسحاب والابتعاد عن الفرنسيين في اتجاه الجنوب آخر محاولة في نهاية خمسينات القرن 19م، من قبل الحاج عمر لإنهاض الهمم وشحذها، استعداداً للانتقام من الفرنسيين. حيث تحقق بعض الشيء من هذه الآمال لصالح المجاهدين، عندما تنقلوا من إقليم بامبوك إلى إقيم بوندو، عبر نهر الفاليمي دون كبير عناء، مما يؤشر على تعاطف بلدان هذه الجهات معهم. كما حققوا نصراً بيناً على القوات الفرنسية بعد معركة ضارية في قرية نجوم (Njum) الواقعة جنوب بلدته حلوار وسط فوتا في منتصف شهر فبراير 1858م خلال فصل الجفاف.[210]

وخلف هذا الانتصار آثاراً إيجابية في نفوس المجاهدين، نتيجة ما خلفوه من خسائر بشرية ومالية فادحة في صفوف العدو، كما تمكنوا من الاستيلاء على مدفعين اللذان شكلا مكسباً مادياً و دعماً عسكرياً مؤثرا.

وبعد هذه المرحلة أتجه الحاج عمر إلى فوتاتور، ولكن لم يكن الطريق سهلاً أمامه، وخاصة بعد الترتيبات الفرنسية، و الخطر الداخلي المتمثل بتحالف بعض الزعامات المحلية مع الفرنسيين.[211]

لا شك أن الحاج عمر كان على علم بكل تطورات الإجراءات السياسية والعسكرية والاقتصادية الفرنسية التي تدبر ضده في فوتاتور، في الوقت الذي كان يهيئ فيه السكان لتعبئة شاملة، تستطيع قلب الأوضاع لصالح الجهاد بالمنطقة عن طريق توزيع الغنائم المحصل عليها بعد الهجوم على المراكز

---

210 ـ الأزمي ، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي ، م.س. ج. 3 ، ص. 124

211 - Ly-Tall.(M), Un Islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle. op. cit .p. 319.

التجارية، وإلقاء الخطب الحماسية ، لكن في مرحلة ثانية تغير خطاب الحاج عمر إلى سكان فوتاتور، ويبدو أن التوجه الجديد لخطابه أملته ضرورات ميدانية واقعية لم يعد قادراً على مواجهتها بنجاح، فأضطر أمام التفوق الفرنسي إلى تغيير الخطاب بغية نهج توسع سياسي جديد، يمكنه من الخروج من المأزق الذي يوجد فيه، ولذلك نجده هذه المرة يحث الناس على الهجرة إلى كارطا للابتعاد عن الفرنسيين ما دام أنهم غير قادرين على مواجهتهم . فيقول الحاج عمر في هذا الصدد: "**هاجروا، لا تتأخروا، اخرجوا من حيث لا وجود للدين ولا للسُنة، هاجروا فإن هذا البلد لم يعد لكم، إنه بلد الأوروبي، ووجودكم معه لن ينجح**."[212]

ولكن يبقى السؤال المطروح هنا: ماذا كان رد فعل سكان فوتاتور على هذا النداء؟

تسمح المعلومات المتوفرة بخصوص هذا الموضوع بالقول، بأنَّ الاستجابة كانت جزئية؛ بسبب ما ترتب عن بناء معسكر فاناي الفرنسي من نجاح في مراقبة تحرك أنصار الحاج عمر ومن يدور في فلكه، مع مارافق ذلك من تشديد في العقوبات من تدمير ونهب وسلب، وزهق أرواح في الأوساط الحضرية والقروية، التي يثبت أو يشتبه أنها تتعاون مع عدوهم، مما يحمل على الاعتقاد أنه حتى تلك المجموعات التي قبلت الهجرة مع الشيخ عمر، على قلتها، فعلت ذلك إما لتشبثها القوي بالدين والقيم الإسلامية، وتفانيها عن الإخلاص لقضية الجهاد، لما رأت في قائدها من عزم وإصرار على السعي لتطبيق نموذج الخلافة الإسلامية الصحيح في منطقة إفريقيا الغربية، بعد اسقاط كل طغاته، وإما أنها هاجرت معه قسرا، تحت قوة الحديد

---

212 ـ السفيوي ،"الاستعمار الفرنسي في السنغال "، م.س ، ص. 165

والنار، كما تتحدث عن ذلك بعض الوثائق التي لا بد من التعامل مع مضمونها بكل ما يجب من حذر، لما عُرف عن الفرنسيين وغير الفرنسيين من تحامل على هذا الشيخ التجاني، وتعمد الإساءة إليه، وتشويه سمعته أمام الرأي العام.

فكانت عملية الهجرة من فوتاتور إلى كارطا محفوفة بالمخاطر؛ لتعدد المراكز العسكرية الفرنسية من فوتاتور حتى أعالي نهر السنغال، ووعياً من الحاج عمر بأن أعين الفرنسيين لا تنام، فقد انطلقت هجرته من نجوم خلال النصف الثاني من فبراير 1859م، في اتجاه كارطا مستغلاً فصل الجفاف الذي ساعد على كبح جماح القوات الفرنسية. وقد ساعدته بالفعل هذه الإستراتيجية بالمرور على كل أراضي فوتا في اتجاه أعالي النهر بسلام، رغم بعض المواجهات الخفيفة التي وقعت بين الطرفين. إلى أن دخل مدينة نيورو (Nioro) عاصمة كارطا سلمياَ يوم 28 يوليو 1859م.[213]

ما يلاحظ على هذه المرحلة بأنه غلب عليها الطابع السلمي، وذلك بموجب مقتضيات المصلحة، وبطبيعة الظرفية الزمانية فالحاج عمر وإن لم يحقق خلال هذه المواجهات ما كان يرجوه من صد العدو، لكنه على الأقل أقلق راحة الفرنسيين بمناوشات جنوده و هجوماتهم على الدور التجارية والعسكرية.

ووعياَ من الوالي فيديرب، ومعه وزارة البحرية الفرنسية بقدرته على إمكان تحقيق أهداف بلاده في المنطقة عاجلاَ أم آجلاً، فإنه رأى من الحكمة – على ما يبدو – أن يسعى إلى تحقيق السلم مع الحاج عمر في الوقت الحاضر على أن يترك لعامل الزمن مسألة تطويق خصمه و الإجهاز عليه.

---

[213] ــــ الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19 ، م.س ، ج. 3 ، ص. 130

فتوصل الطرفان خلال شهر غشت 1860م إلى الاتفاق على مشروع معاهدة السلم، الذي يجب عرضه على أنظار قائد جيش الجهاد للموافقة عليه.

ـــ المفاوضات من إجل إقرار السلم بين الطرفين، وانهيار الدولة العمرية:

سبق أن أشرنا في مكان سابق بخصوص هذا الموضوع، إلى أنَّ رغبة الوالي الفرنسي فيديرب في السلم مع الحاج عمر، ترجع إلى سنة 1856م؛ لحماية المصالح التجارية الفرنسية بالسنغال، والاطمئنان عليها من أطماع القوة العمرية الزاحفة آنذاك بإصرار في اتجاه كارطا عبر بلدان أعالي نهر السنغال، وهي الرغبة التي أبداها من خلال توصية له بتاريخ 12 يوليوز من نفس السنة، وهو بصدد مغادرة السنغال في عطلة إلى فرنسا إلى نائبه موريل (Morel) بسانت لويس، يطلب منه فيها أن يقترح على الشيخ الفوتي الاعتراف به كملك على كارطا، شريطة حصر عمله في نفس هذه البلاد.[214] وفي سنة 1859م أحيى فيديرب هذه الرغبة، بعد المواجهات المسلحة بين الطرفين، خلال سنة 1854 و 1858م، وبعد أن كان الحاج عمر قد عاد إلى كارطا سالما من محاولات التطويق والإخضاع التي استهدفته في فوتاتور، خوفا من إمكانية عودة قوية لهذا الشيخ في هذه البلاد الحديثة العهد بالإسلام، تقوض كل أحلام الفرنسيين في المنطقة بعد إعداد العدة لذلك.

وقد جاء تحديد هذا الانفتاح الذي أرسله فيديرب بعد عودته من فرنسا والموجه إلى القبطان كورني (Cornu)، قائد حصن باكل، يحمل نفس أفكار اقتراح 1856م، وقد خاطبه فيه متحدثاً عن الحاج عمر فيقول بهذا الصدد: "

---

[214] Saint- Martin (Y), 1967, Empire Toucouleur et la France un demi siécle de relations diplomatiques, (1846- 1893), Dakar, p. 94.

إذا وجدتم ذلك مناسباً وأتيحت لكم الفرصة، بلغوا الحاج عمر أنه إذا قبل أن يكون ملكا على كارطا، يحمي التجارة، ويبقى في السلم معنا، فإنه بإمكاننا أن نعيش معه في السلم".[215]

في هذا الوقت، كان الحاج عمر منهمكاً في الإعداد لفتح مدينة سيكو، وغير مطمئن كامل الاطمئنان على كارطا من احتمال ثورة أهاليها، وخوفا من كيد الفرنسيين الذين بدر منهم في نفس الظرفية، ما يبرر هذا التخوف بالفعل، عندما أرسلوا قوات تمكنت في 25 أكتوبر 1859م من تدمير طاطا، أكبر قلعة للجيش العمري شرق نهر السنغال جنوب باكل، وعلى التخوم الغربية لكارطا والتي كانت بموقعها هذا مؤهلة لمراقبة مداخل فواتور، والسنغال الأعلى وكارطا في آن واحد.[216]

لقد كانت ضربة قاسية بالفعل ضد العمريين، سعى من خلالها الفرنسيون – على ما يبدو – إلى التأثير على الحاج عمر وأنصاره، لحملهم على قبول الرضوخ للسلم. وبما أنّ الحاج عمر قد غادر كارطا وأخذ طريق الشرق على رأس جيوشه المتوجهة صوب سيكو عند وقوع هذا الهجوم، فمما لا شك فيه، أنه كان يميل إلى السلم مؤقتاً. وقد يكون كلف تييرنو موسى خليفته على مدينة كونيكاري أحد أقاليم كارطا الغربية بمهمة التفاوض من أجل السلم مع الفرنسيين، كما يحتمل أن يكون هذا الأخير اتخذ مبادرة تحمل مسؤولية التفاوض مع العدو من تلقاء نفسه، لما يمكن أن تقدمه مثل هذه المبادرة من خدمة لحماية ظهر قوات الجهاد التي ذهبت في مهمة عسيرة محفوفة بالمخاطر.[217]

---

[215] – Ibidem, p. 95.

[216] ـ أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص.168.

[217] –Saint- Martin (Y), Empire Toucouleur.., op. cit, p. 90.

وأصل تحفظنا في هذه النقطة، يعود إلى عدم عثورنا مصدريا على ما يؤد أن الحاج عمر كلف تييرنو موسى بالفعل بمهمة التفاوض مع الفرنسيين، دون إقصاء احتمال أن يكون هذا التكليف قد تم شفوياً، حتى لا يثبت على قائد عمليات الجهاد أنه يسعى إلى الصلح مع المسيحيين، مما يضعه في موقف متناقض مع طبيعة مهمته.وأيا كان الأمر، فإنَّ المفاوضات بين الطرفين قطعت بعض الأشواط، وكان العنصر الفاعل فيها من الجانب العمري هو تييرنو موسى بالصفة التي قدمناها، والذي يبدو أنَّ سقوط قلعة باكل أجبره على مفاتحة الفرنسيين في السلم في صيف 1859م؛ أي مع حلول الفصل المطير ثم جدد هذه الرغبة في ربيع 1860م.

وحول هذا الموضوع يتحدث قائد مدينة (Ménide) إلى فيديرب والي سانت لويس قائلاً: "**يخبرنا تييرنو موسى أنه يثق بنا، وأنه يريد السلم، وقد أرسل عدة أشخاص إلى باكل**". ومما يؤكد هذه الرغبة عند العمريين الرسالة الموجهة إلى كورني قائد باكل بتاريخ 23 يونيو 1860م، باسم أعيان كونيا كاري وعلى رأسهم طامبو "أي ملك" طامبو كاديهيا، والتي تبرز إلى أي حد ذهبوا في مجاملة الفرنسيين إلى حد التزلف لهم؛ تجنباً لفتح جبهة قتال ضد الدولة العمرية تكون سبباً في تبديد كل أحلام الحاج عمر، خصوصاً والفصل الجاف قد انتهى. وهذه بعض مضامينها: "**إنَّ هدف هذه الرسالة هو إخباركم أننا الآن بينكم وبين الشيخ الحاج عمر من أجل تسوية الأمور معاً، وإرساء السلم. لدينا تحالفات مع البيض (يقصد القبائل الموريتانية)، ونلجأ إليهم دائماً، ورغم أننا الآن منفصلون جسدياً فإننا مجتمعون قلباً وصداقة. لأنكم أنتم أجدادنا، ولا يجمل بالابن أن ينسى أبه وأمه. والآن نطلب منكم أن تتفقوا معنا ومع الشيخ، وأنه باستطاعتنا أن ننوب في ذلك عن الشيخ عمر**

لأنه منحنا ذلك. نحن نؤمن بهذا، ونصبو إليه من طرفكم لأنكم تجسدون أبانا وأمنا، وكل فرع ترتبط مصلحته بالأصل الذي خرج منه..".[218]

وقد علق فيديرب متهكماً على أخبار هذه الاقتراحات التي بلغه إياها كورني، بأنه في كل السنوات يتم اللجوء إلى مساعي مماثلة تجاهنا في وقت ارتفاع المياه، ولذلك ردَّ على كورني بأنه لا يثق بجدية هذا الانفتاح.[219]

نقل هذا الخبر موقف رئيسه فيديرب إلى الناطق باسم الحاج عمر دون أن يغلق باب التفاوض معه، مما جعل تييرنو موسى يجيب بأنه جاد في التواصل إلى السلم مع مخاطبيه، لما فيه مصلحة للجميع. وإلى هذا، ساعدت ظروف الالتزام بعدم إطلاق النار، وازدهار التجارة بالمنطقة مدة المفاوضات، في زيادة الثقة بين كونيكاري[220] من جهة، وباكل ومدينة من جهة أخرى، مما شجع فيديرب على إعطاء الضوء الأخضر للسير قدما في اتجاه القيام بالإجراءات الضرورية لوضع أسس مشروع معاهدة السلم بين الجانبين، وكله تفاؤل بأنَّ الكلمة الأخيرة ستكون لفرنسا في غرب إفريقيا، كما يوحي بذلك مضمون كلمته التي ألقاها في الحاضرين بسانت لويس بمناسبة توزيع الجوائز في مدرسة الرهائن، يوم 14 يوليوز 1860م، إذ يقول: **"لقد ولى زمن التعصب والأوهام، ولم نعد في سنة 1854م؛ حيث كان بعض أهالي هذه المدينة (أي سانت لويس) نفسها يعتقدون أنَّ المحتال الحاج عمر كان يملك في جيبه مفاتيح سانت لويس، وبإمكانه الإلقاء بالنصارى في البحر".**[221]

---

[218] ___ Ibidem, p. 97.

[219] ـ أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص.170.

[220] ـ تعتبر كونيكاري إحدى مدن كارطا الكبرى بعد مدينة نيورو.

[221] ـ الأزمي، المرجع نفسه، ص. 171.

وللتأكيد من مدى صدق العمريين (المسلمين) في ترجمة أقوالهم لأفعالهم، انتقل فيديرب بنفسه إلى أعالي نهر السنغال، ليقف في عين المكان على حقيقة نواياهم خلال المحادثات التي سيجريها مع ممثليهم الذين ينتظرونه في مدينة (Médine).

وعندما وصل إلى باكل في نهاية يوليوز 1860م، أطلعه القائد كورني على المراحل التي تمَّ قطعها في المفاوضات مع طامبو، الذي كان قد حضر إلى مركزه يوم 15 من نفس الشهر، وعرض عليه الخطوط العريضة لمسودة الاتفاقية بين الجانبين فاستحسنها، إلا أنه ربط موافقته على محتواها بإضافة تعديلين، يتعلق الأول منهما بتوسيع حرية التجارية الفرنسية إلى ما وراء البلدان التي تخضع لنفوذ المجاهدين. أما الثاني، فيرتبط بضرورة الحصول على موافقة الحاج عمر على بنود هذه الاتفاقية. وقد بعض كورني بملاحظات أساسية فورا إلى تييرنو موسى، الذي رد عليها بالايجاب، قائلاً: "**أقبل كل ما تتضمنه رسالتك، يمكن لمبعوثك أن يأتي لأساعده على الالتقاء بالحاج عمر دون أن يصيبه أي مكروه، كل ما ضمنته رسالتك صحيح...، وأنا أقبل شروطك**".

ويبدو أنه بعد هذا الجواب الصريح من الجانب العمري، لم يعد لفيديرب أي شك في حسن نية محاوريه، مما وفر الظروف الملائمة لصياغة مشروع معاهدة حظي برضى الطرفين في 18 غشت 1860م، واشتملت على حوالي شبعة بنود:

اعتبار نهر السنغال الأعلى ابتداءاً من باكل (Bakel) شمالاً وروافده نهر البافنيك (Bafnig) جنوباً حداً طبيعياً فاصلاً بينهما، بشكل يتيح لفرنسا السيطرة على كل ما يوجد من أراضي على الضفة اليسرى للنهر.

كل ما يوجد على يمين نفس الحدود من أراضي مثل ديومبوخو Diombokho وكارطا، و ما والاها شرقاً يخضع للنفوذ العمري باستثناء إقليم جيديماخا .

لا يسمح للحاج عمر ببناء قلاع ولا قرى حربية.

الكف عن شن الحملات العسكرية والقيام بأعمال السلب والنهب لكلا الطرفين.

قبول الحاج عمر بإرجاع السلع التي أخذها في مدينة (Médine).

حرية التجارة بين البلدين، وسنبيع للحاج عمر كل ما يطلبه منا.

كل بلد يحتفظ برعاياه وأسراره كما يريد، ولا يجوز إرجاع الرعايا والأسرى الذين يفرون من بلد لأخر.[222]

لا يحتاج الباحث إلى عناء كبير ليستنتج بعد الاطلاع على هذه الاتفاقية، أن بنودها صيغت لخدمة المصالح الفرنسية بالدرجة الأولى، فنلاحظ في البند الأول الذي يعالج مجال النفوذ بين الطرفين أدخل مناطق السنغال الأعلى الغنية بالثروات الباطنية للنفوذ الفرنسي، وهذا ما يشكل ضربة قوية للحاج عمر اقتصاديا واستراتيجيا على الخصوص، بما شكلته هذه المكتسبات من حواجز تحول دون اتصال الدولة العمرية في كارطا بجذورها في فوتاجالون من حيث كانت الانطلاقة الأولى. كما أن البندين الثالث والسابع كبلا أيدي الحاج عمر، وحكما عليه بالدخول في مرحلة من القهر والضعف، لا يستطيع معها مقاومة أي تحد في حالة ما إذا التزم كل طرف بتطبيق بنود هذه المعاهدة بالفعل.

---

222 — Crowder Michael; 1978, A History of West Africa A. D. 1000 to the present, Harlow: Longman Group, P. 92-93.

لقد رأى فيديرب في التوصل إلى مشروع معاهدة 1860م، نصراً كبيراً للفرنسيين ولسياسته بالخصوص في المنطقة، مما جعله يدافع عنها ضد كل التيارات المعارضة في سانت لويس لهذا الانفتاح، لأنها لم تكن تثق بإمكانية جنوح الحاج عمر إلى السلم، من جهة، ولأن مشروع هذه المعاهدة نفسه، في اعتقادها لا قيمة له مادام قائد الجهاد لم يطلع عليه ليعطي رأيه فيه. ومع ذلك، ظل فيديرب متمسكا بهذا الانجاز لما يمكن أن يفتحه من آفاق مشجعة لتحقيق الأطماع الفرنسية في اتجاه السودان النيجيري.[223]

فماذا ترتب إذاً عن هذه الاتفاقية، وما كان مصيرها، وهل أطلع الحاج عمر على بنودها ووافق عليها؟

بخصوص هذا التساؤل الأخير، لا بد لنا من التأكد على أن تخوفات بعض فرنسيي سانت لويس من إمكانية انفتاح الحاج عمر على السلم، كانت في محلها، لأنهم يعرفون موقفه من الفرنسيين، وطموحه في إخضاع كل مناطق إفريقية الغربية للخلافة الإسلامية، بل تأكد هذا التخوف عندما رد الحاج عمر بالسلب على مشروع هذه المعاهدة بعد الانتصارات التي حققها في سيكو خلال سنة 1861م، وانتشرت إشاعات عودته بقواته نحو الغرب لمواجهة الفرنسيين.

لكن خبر هذه العودة بعد انتصاراته على ملك ماسينا خلال سنة 1862م، لم يتحقق ولم يثنه عن ذلك سوى التطورات المأساوية التي آلت إليه حركته على إثر انهزاماته المتتالية التي تعرض لها جيشه على يد قوات الحلف المكون من التمبكتيين والماسيين خلال سنتي 1863 و 1864م، بل هناك من يرى أنّ أحد أسباب المحن التي أدت إلى وفاة الحاج عمر وزوال دولته، يرجع إلى كون الشيخ الفوتي لم يمنح نفسه الوقت الكافي بعد

[223] –Saint- Martin (Y). Empire Toucouleur... op. cit, p.108.

الانتصارات التي حققها لاسترجاع أنفاسه، بل وجه كل عنايته لإعداد استئناف الجهاد ضد الفرنسيين بشكل مباشر وعلى الفور.[224]

وهكذا، عندما حلَّ ماج يوم 28 فبراير من عام 1864م بسيكو مبعوثاً من قبل الوالي فيديرب، إلى قائد الجهاد من أجل التصديق على المعاهدة وسط التخوفات الفرنسية من سوء نية العمريين، كان الحاج عمر يعيش أيامه الأخيرة، لتحل بذلك بداية نهاية الإمبراطورية العمرية.

وبما أنَّ أحمدو السلطان الجديد على مدينة سيكو، لم يتوصل بخبر وفاة والده إلا في شتنبر 1856م. فإنه هو الذي سيواصل مع ماج المحادثات المرتبطة بإبرام معاهدة للسلم، والتجارة بين الطرفين، وهو ما تمَّ بالفعل سنة 1866م، لتبرم بعدها سلسلة من المعاهدات بين الجانبين، لم يجن أحمدو ملك سيكو من ورائها أي نفع؛ ذلك أنه كنتيجة حتمية ومنطقية، فقد ترتب على اختفاء الحاج عمر زوال أكبر عقبة في وجه التقدم الفرنسي سياسياً واقتصادياً بالمنطقة، لأنَّ الابن لم يكن في مستوى الأب، ولكثرة الورثة الطامعين بالحُكم، وبالنظر إلى شعوب المنطقة، بامبارا، وفولانيين وثنيين ومسلمين تنفسوا الصعداء بعد هذا التحول، خصوصاً أصحاب الامتيازات، لما سهل مهمة الفرنسيين، وأفسح المجال أمام الجميع للتعاون معهم لكثرة الخدمات والامتيازات التي كانوا يعرضونها على حلفائهم.

ولذلك أمكنهم بسط نفوذهم على كل إفريقيا الغربية مع نهاية القرن 19م. أما سلسلة المعاهدات التي أبرموها معه مثل معاهدة سيكو سنة 1866م، ومعاهدة نانكو سنة 1880م، ومعاهدة كوري 1887م، فلم يكن الهدف منها سوى ربح الوقت، واستغلال بعض مقتضيات بنودها التي تسمح لهم – على الخصوص – بحرية التجارة والمرور، وتنقل البعثات وسفارات

[224] – أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص. 174.

التفاوض، وهي عوامل مكنتهم من الاطلاع على الأوضاع الحقيقية للبلاد، وإبرام التحالفات والمعاهدات السرية مع أبرز حكامها، وشراء مساحات شاسعة من الأراضي من أعيانها، ومد خطوط التلغراف، والسكك الحديدية عليها.

ومع أنَّ الشيخ أحمدو سلطان سيكو والخليفة الجديد للتجانية بإفريقيا الغربية، بعد رحيل أبيه الحاج عمر، كان واعيا تمام الوعي بالخطر الذي يحدق به نتيجة هذه المعاهدات، وكثرة البعثات الفرنسية التي تزوره في مقر حُكمه؛ فإنه كان عاجزا عن إبداء أية مقاومة، لعلمه بتفوق الفرنسيين عليه في كل شيئ، ولتطلعه إلى الحصول منهم على كل ما يلزمه من الأسلحة والذخيرة؛ لإخماد الثورات في كل أطراف الإمبراطورية، مثل كارطا، وماسينا، وسيكو نفسها، لإحباط الانشقاقات والانقلابات ضده من قبل أخوته، وابن عمه تجاني، لكن بعيدا عن أن يحقق الفرنسيون أحلامه في توطيد نفوذ دولته، فقد ساهموا على العكس من ذلك في تفويضها، بتشجيع كل أسباب الفرقة بين كل مكونات الأسرة الحاكمة، وحث كل الأقاليم على الثورة ضد التجانيين.

ومن أهم مظاهر حُسن نية السلطان الفوتي أحمدو تجاه الفرنسيين، علاوة على إبرام معاهدات سلم وتجارة معهم، تفضيلهم على الإنكليز الذين اتصلوا به أكثر من مرة لقطع الطريق على حكام سانت لويس، ومعاملته أفراد البعثات الفرنسية معاملة حسنة، بشهادة تقارير الرحالين والسفراء أنفسهم، والتزامه للسلام، واحتفاظه ببرودة الدم تجاههم في أحرج الظروف، بتصديقه على المعاهدات دون أن تصدق فرنسا ولو على واحدة.[225]

[225] - Saint – Martin (Y), l'Empire Toucouleur..., op. cit. p. 251.

ولا يمكن تفسير هذا الواقع، إلا بكون سلسلة المفاوضات والمعاهدات بين الطرفين كانت مغشوشة من الأساس (عبارة عن مسرحية)، باعتبار أنّ الفرنسيين كانوا يهدفون من ورائها إلى ربح الوقت فقط، في انتظار إضعاف وتفجير الدولة العمرية من الداخل، بسبب الخطر الذي كان يشكله بقاء أحمدو ودولته الإسلامية على مستقبل السنغال، التي كان يتجاوب سكانها مع الدعوة إلى محاربة المسيحيين. وهو ما حدث على يد القائد العسكري الكولونيل أرشينار الذي زحف بجحافله على سيكو واحتلها سنة 1890م، خارقاً بذلك بنود كل المعاهدات، بعد أن فر منها مدني (Médine) ابن أحمدو، الذي كان يحكم هناك باسم أبيه، لتؤول كارطا وعاصمتها نيورو إلى نفس المصير سنة 1891م على يد نفس القائد، مما أجبر أحمدو الذي كان يقيم بها على الانسحاب إلى باندياكارا، التي طرد منها سنة 1893م بقوة الحديد والنار على يد أرشينار، الذي نصب عجيبو أحد أبناء الحاج عمر المتحالف مع الفرنسيين حاكماً على هذا الإقليم. وبعد هذه الهزيمة، التي أجهزت على البقية الباقية من القوات العمرية المتشبثة بالوحدة والاستقلال، وتتحدث المصادر عن فرار السلطان أحمدو شرقاً في اتجاه بلاد الهوسا، التي لجأ إليها لدى حُكام مملكة سكوتو الإسلامية (القادرية الطريقة) إلى أن مات سنة 1898م، ليختار أنصاره بعد وفاته المنفى في الحجاز.[226]

خلاصة القول، هكذا ومع انتهاء القرن 19م، تمكنت فرنسا من إخضاع كل إفريقيا الغربية لنفوذها، بعد إسقاط الدولة العمرية التي شكلت وفاة شيخها الحاج عمر أول مسمار دقَّ في نعشها، محققة هناك تقدماً على إنكلترا، التي كانت تصول وتجول في جهات أخرى من إفريقيا، على غرار دول أوروبية

---

[226] _ أحمد الأزمي، العلاقات المغربية الإفريقية، م.س، ص. 178.

أخرى تطبيقاً لمقررات مؤتمر برلين، التي أطلقت أيديها بشكل قانوني منذ فبراير 1885م.

لقد سقطت الدولة العمرية التجانية سياسيا بالفعل، لكنها لم تسقط روحياً ودينياً، بفضل الجهود التي بذلها رجالاتها سياسياً وفكرياً.

خاتمة

ها نحن قد وصلنا، بعد طول نجعة، إلى ختام هذا العمل المُكرس **لموقف الإسلام من الاستعمار الفرنسي في السنغال 1854ـــ 1865م: الحركة العمرية نموذجاً**. وقد توصلنا من خلال عشرتنا لهذا الموضوع، إلى عدد من النتائج والملاحظات الهامة نجملها في النقاط التالية:

- بدأ حديثنا عن الأوضاع العامة في السنغال قبل التدخل الفرنسي، وذلك برسم الخطوط العريضة للأوضاع الجغرافية، والبنى الاجتماعية، والسياسية، التي أطرت حياة الناس. فسعينا في الجانب الجغرافي إلى التعريف بالموقع الجغرافي للسنغال، والبيئة والمناخ إضافة إلى الغطاء النباتي. وتبين لنا خلال هذا الفصل، أنَّ موقع السنغال القريب من أوروبا، والمطل على المحيط الأطلسي شكَّل أهمية كبيرة بالنسبة لأوروبا وخاصة فرنسا؛ وكان كفيلاً بتوجيه سياسة فرنسا لفرض السيطرة الاستعمارية. أما الحياة الاجتماعية، فقد حاولنا إلقاء الضوء على البنية الهرمية لهذا المجتمع، وذكّرنا بأهم مظاهر التعارض والتآزر، وما كان للتمثلات الإيديولوجية والضرورات الاقتصادية ووشائج القربة من دور في هذا المجال. وبخصوص المحور السياسي، فقد حاولنا التعرف على أهم الأنظمة السياسية في السنغال، وعلاقتها بالتركيبة الاجتماعية، وقمنا أيضاً بتلخيص آراء بعض المؤرخين بشأن وجود أو عدم وجود نمط الدولة في المجتمع الإفريقي عموماً والسنغال خصوصاً قبل عصر الاستعمار. وخلصنا إلى أنَّ المناطق الإفريقية بما فيها مجالنا الجغرافي لم ينتظر الأوروبيين حتى يأتوا إليه في القرن التاسع عشر

ويُعلِموه شكل الدولة ونظمها؛ حيث نهض فيه سلطنات وممالك إسلامية يشهد لها التاريخ في الفترة ما بين القرن العاشر والثامن عشر الميلاديين.

- يتضح جلياً من النماذج التي استعرضناها من خلال معالجتنا لمراحل انتشار الدين الإسلامي وتغلغله في السنغال، أنَّ الإسلام شقَّ طريقه إلى منطقة دراستنا بطرق سلمية، بعيدة عن منطق الحرب والعنف؛ ولعب الدعاة والتجار سواء المغاربة منهم أم المشارقة، دوراً رائداً في تبلغ الدعوة الإسلامية.

- وتبين لنا كذلك، أنَّ وضعية الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في السنغال، تُبشر بآفاق رحبة، وبمستقبل أفضل؛ فأصبح الإسلام مرجعية دينية سواءً على المستوى الرسمي أو الشعبي، حيث أحدث الإسلام تغيراً مهماً في حياة الفرد السنغالي، وهذا التحول، لم يكن ليحدث بينما الثقافة الأرواحية لا زالت منتشرة انتشاراً كبيراً. وفي هذا الجانب، يمكننا القول إنَّ شعوب المجال السنغالي المتعددة الأعراق، تخلت عن دياناتها القديمة منذ منتصف القرن الخامس الهجري (11م) بطريقة تدريجية، وأصبحت تقاليدها تتفكك بمرور الزمن حتى لم تعد تقتصر إلا على بعض العادات القليلة. وعليه يمكننا القول وبكل اطمئنان: "إنّ الإسلام قد أدخل إلى حوزته الثقافية مجالاً جغرافياً جديداً تمثل في السنغال، والذي أصبح جزءاً من الدولة الإسلامية الوسيطية القوية، لاسيما وأنّه قد أمدها ببعض مصادر القوى الاقتصادية، وبذلك لم تنعزل السنغال عن تطورات العالم الإسلامي في العصر الوسيط ومطلع الحديث، بل ساهمت فيه وتأثرت بأحداثه، فعاشت مرحلة قوته وتأثرت بضعفه، مما يعني بأنَّ تشكيل تاريخ السنغال لم يتم خارج أو على هامش التاريخ الإسلامي".

- كان الوجود الأوروبي على الشواطئ السنغالية قبل القرن 19م، مقتصراً على الجانب الاقتصادي (بعثات تجارية، الاتجار بالذهب والعاج

والرقيق، إنشاء محطات تجارية)، والثقافي (محاولة نشر المسيحية). وكان همه الأكبر هو تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح، وكما لم يصطحب هذا الحضور ـــ بطبيعة الحال ـــ أي وجود عسكري مكثف على الأرض السنغالية.

- لم يشكل هذا الوجود أي تهديد ثقافي على الإسلام خلال هذه الحقبة، على عكس الفترة اللاحقة (القرنين 19 و20م)؛ وذلك عندما تدخلت الدول الأوروبية بشكل مباشر في معظم المناطق الإفريقية واحتلتها عسكرياً، بما فيها مجال دراستنا.

- يتضح أيضاً أنَّ التوسع الاستعماري الفرنسي في السنغال، لم يكن وليد ظرفية القرن 19م؛ بل كان تخطيطاً مبرمجاً يرجع إلى زمن بعيد. وأنَّ علاقة السنغال مع فرنسا طبعتها عبر القرون السابقة للقرن للتاسع عشر علاقات تجارية بأغلب الأحيان، هذه العلاقات كرستها الشركات التجارية الفرنسية في السنغال.

- المتتبع لهذا البحث، يجد أن فرنسا استعملت كل الوسائل المتاحة شرعية كانت أم غير شرعية، للوصول إلى التراب السنغالي، متمثلة بالعديد من المحاولات (زراعية – تجارية)، لكن هذه السياسة المتعثرة يمكننا حصرها حتى عام 1854، أي مع تعيين الوالي فيديرب (Faidherbe)، الذي يعتبر تعيينه نقطة تحول كبرى في السياسة الاستعمارية؛ إذ استطاع هذا الأخير عن طريق استخدام القوة أنْ يدشن مرحلة جديدة في علاقة فرنسا مع الممالك السنغالية، وكان من نتيجة ذلك تأكيد السيطرة الفرنسية على المنطقة، وكذلك الحد من هيمنة الإمارات البيضانية، التي كانت كثيراً ما تشكل خطراً على المصالح الفرنسية. كما سعى الوالي الجديد على ربط المستعمرات الفرنسية في الجزائر مع مستعمرة السنغال في غرب إفريقيا. لكن هذا

الإجراء خلق متاعب كثيرة للإدارة الفرنسية، إذ كان سبباً للاضطرابات التي عمت أرجاء البلاد، معلنة رفضها المطلق للمساس بسياستها، مما أثر سلباً على العملية التجارية، وقد استدعى ذلك تدخل القوات الفرنسية في أكثر من نقطة لإخمادها، وكان لها ذلك، عبر اتفاقيات غير متكافئة، وكذلك من خلال استخدام فرنسا بعض أصحاب النفوس الضعيفة لتحقيق وفرض السيادة الفرنسية.

- يتبين لنا من خلال هذه الدراسة، الدور الأساسي لبعض المواد في تحريك السياسة الاستعمارية، وخاصة (الرقيق، والذهب)، وهذا ما جعل رجال السياسة والإدارة الاستعمارية في سانت لويس، توجه أنظارها إلى منطقة النهر، بعد إلغاء الرق الذي يعتبر بمثابة ضربة قوية للمصالح الفرنسية الاقتصادية، فخاضت فرنسا حروب طويلة أدت في النهاية إلى إخضاع بعض الممالك النهرية وإلى عقد معاهدات سلام أخرى، والذي يلاحظ على هذه المعاهدات أنها فرضت على الطرف الآخر الممالك النهرية، فكرست هذه المعاهدات شروط فرنسا التوسعية.

- هكذا إذاً بدأ مسلسل السيادة التوسعية مع فيديرب، الذي افتتحها باحتلال والو في دجنبر 1855م، وكذلك بتوقيع اتفاقية سلام مع الترارزة 1858م، لتأكيد السيادة الفرنسية، ثم تبعها ضم باكل وخاسو، ومناطق الفول السوداني "سين وسالوم"، وبذلك أصبحت معظم المناطق السنغالية تتبع للسيادة الفرنسية، وكان لتنظيمات فيديرب من بناء جسور، وسككك حديدية وما شابه ذلك من بنى تحتية، دور هام في خدمة المشروع الاستعماري.

- من الملاحظ أن مهمة فيديرب هذه لم تكن بالسهلة، ولم يكن الطريق مفروشاً بالورود، كما تصوره لنا بعض الكتابات الأجنبية؛ فمعظم سكان البلد كانوا مسلمين يؤمنون بأن هذا الغازي لا بد من مقاومته؛ لذلك

كان الإسلام يشكل أكبر عقبة أمام الوجود الفرنسي. وتسعفنا الذاكرة باستحضار قول أحد الضباط الفرنسيين وهو فيليب فونداسي: " **إن الإسلام يهدد الثقافة الفرنسية بالفناء التام في إفريقيا السوداء**" .

- ويمكن أن نعتبر أن الحركات الجهادية الإسلامية كانت بمثابة رد فعل لتأزم الأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة خلال القرن 19، وما ترتب على ذلك من الابتعاد عن جاد السلف الصالح .

- ووجدنا من خلال بحثنا، أنَّ من أهم تلك الحركات التي غيرت الخريطة السياسية للبلاد، هي تلك التي قام بها الحاج عمر الفوتي، والذي استطاع خلال فترة وجيزة السيطرة على مجمل ممالك أعالي النهر بما فيها الوثنية والمسلمة، وتهديد الوجود الفرنسي في المنطقة، وذلك بعد قيامه برحلات داخل المجال السنغالي، وخارجه، كان من أهمها رحلته إلى المشرق لأداء فريضة الحج، هذه الرحلة الحجية التي استغرقت قرابة عقدين من الزمن، حيث عاد بتجربة روحية كان لها دور بالغ في فكره الجهادي.

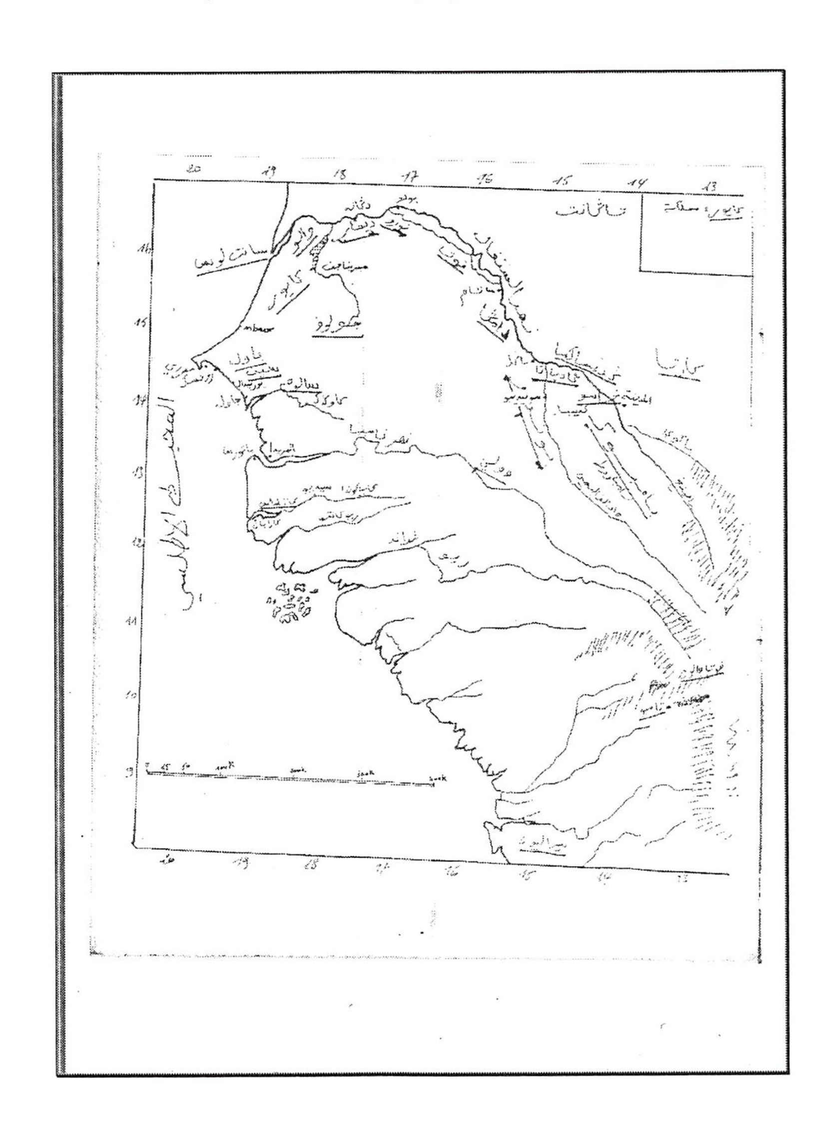
- فخاض الحاج عمر العديد من المواجهات مع الفرنسيين، وكبدهم خسائر فادحة، وأجبرهم في كثير من الأحايين على تغيير إستراتيجيتهم تجاه الممالك السنغالية، وجعلهم يحسبون له ألف حساب، وكذلك رأينا كيف دبرت فرنسا عملية التخلص منه وذلك من خلال التحالف السري مع بعض الممالك الوثنية، حيث دبرت اغتياله عام 1864، ظناً منها بوقف المروحة الجهادية، لكنها لم تكن تعرف بأن هناك الآلاف من الحاج عمر، وهكذا تولى المقاومة من بعده ابنه البكر أحمدو، الذي حاول توحيد البلاد، لكنه لم ينجح، وذلك بسبب تحالف بعض الملوك ضده، وأيضاً بسبب الخلافات الداخلية المتمثلة بالصراع على الحكم.

- بطبيعة الحال ستستمر المقاومة الإسلامية في المنطقة إلى حدود عام 1895، وهي فترة حاسمة في تاريخ السنغال، إذ دشنت فرنسا خلالها حملات عسكرية مسعورة أدت إلى فقدان الممالك السنغالية استقلالها التام .

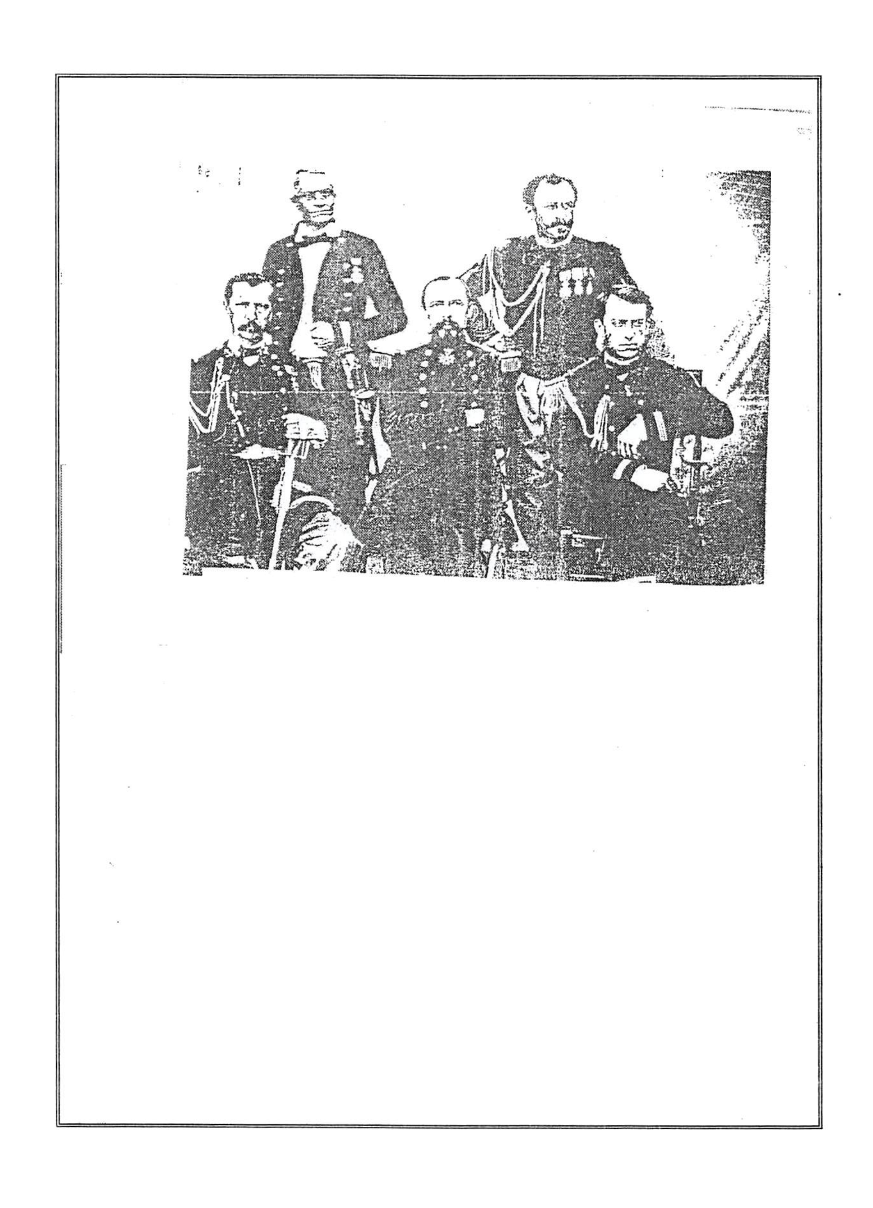
- وأخيراً ونحن نخط السطور الأخيرة لهذا العمل، نود التأكيد على أنَّ موضوع المقاومة الإسلامية للاستعمار الفرنسي في السنغال، رغم الجهد الذي بذلناه، لم نتمكن من دراسة كل جوانبه دراسة شاملة، ونتمنى أن تتاح لنا هذه الفرصة في دراسة قادمة بحول الله، كما نأمل أنْ يُقبِل باحثون آخرون على الاشتغال بهذا الموضوع.

ملاحق

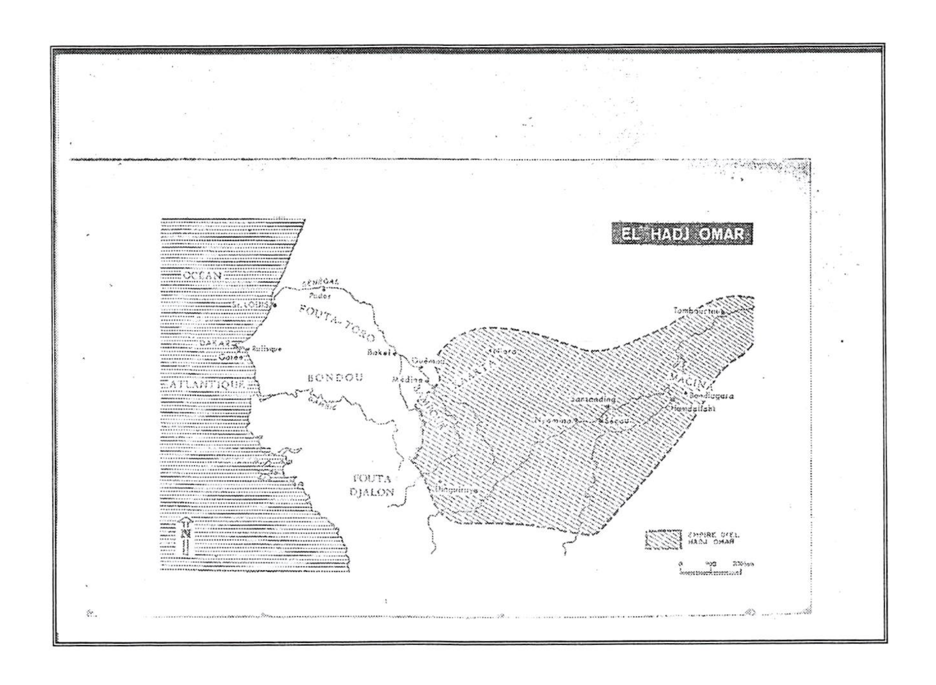
ملحق رقم :(1) خريطة السنغال حسب فيديرب Faidherbe، نقلاً عن السفيوي (الاستعمار الفرنسي في السنغال، ص. 395)



ملحق رقم : (2) فريق فيديرب سنة 1863 ، من اليمين إلى اليسار النقيب البحري ميج ، اللواء فيديرب، العقيد بنت لابراد ، ستيفان ، فليز . نقلاً عن السيفيوي، (الاستعمار الفرنسي في السنغال، ص. 399)



ملحق رقم : (3) مملكة الحاج عمر في أقصى اتساعها ، نقلا عن: الأزمي، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، ج.2، ص. 533



ملحق رقم (4) الحاج عمر الفوتي ، نقلاً عن: السفيوي، الاستعمار الفرنسي في السنغال، ص. 3



المصادر والمراجع

أولاً - المصادر والمراجع العربية

ابن بطوطة، 2009، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد الرحيم، دمشق، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.

ابن عبد الحكم، 1964، فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

أبو عبدالله زكريا بن محمد، القز ويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، د. ت.

أحمد الأحمر، أسماء، 2008، الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية، طرابلس، منشورات الجامعة المغاربية.

الأزمي، أحمد، 2000، الطريقة التيجانية في المغرب والسودان الغربي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط.

▪ 2009، دراسات في تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية خلال القرن 19م، فاس، دار ما بعد الحداثة.

بدوي سالمان، علي، " الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا 1903 - 1960"، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الدارسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 2003.

البكري، عبدالله ، 1965، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريس، ميزونوف.

بن بابه العلوي، محمد فال، 1986، التكملة في تاريخ إمارتي البراكنة و الترارزة :نصوص من التاريخ الموريتاني، تحقيق، أحمد ولد الحسن، قرطاج : بيت الحكمة.

بن محمذن، محمدو، 2001، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، الرباط، منشورات معهد الدارسات الإفريقية.

الجمل، شوقي عطا الله، 1998، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، القاهرة، منشورات مكتبة الإنجلو المصرية.

الديماني، أحمد، 1992، إخبار الأخبار بأخبار الآبار، تحقيق أحمد ولد الحسن، تعريب بول مارتي، الرباط: معهد الدراسات الإفريقية.

رونالد أوليفر، و أنتوني أتمور،2005 ، أفريقيا منذ عام 1800، ترجمة فريد جورج بوري ، مراجعة عبدالله عبد الرزاق إبراهيم ، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة.

السعدي، عبد الرحمن، 1981، تاريخ السودان، وقف على طبعه من غير تغيير نصه مع ترجمته للفرنسية أوكتاف هوداس بمشاركة تلميذه السيد بنوة، باريس، ميزونوف.

السفيوي، عبد النبي، "الاستعمار الفرنسي في السنغال 1854- 1876م"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، الرباط: جامعة محمد الخامس، 1995ــــ 1996م، (مرقونة).

سلام زناتي، محمود، 1969، الإسلام والتقاليد القبلية في إفريقيا، بيروت، دار النهضة العربية.

شكراوي، خالد، "الأصول التاريخية للطرقية في حوض السنغال"، المناهل عدد 80-81، 2007، الرباط: منشورات وزارة الثقافة.

الشكري، أحمد، الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي 1230ـــ1430م، أبو ظبي، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة.

- 2002، "جهاد الحاج عمر في أعالي نهر السنغال"، ضمن أعمال الندوة الدولية المنعقدة في داكار ـــ السنغال (14ـــ 19 دجنبر 1998)، بمناسبة مرور مائتي سنة على ميلاد الحاج عمر الفوتي تال، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط.

عبد الدايم، أحمد، 2013، تاريخ إفريقيا الاقتصادي في عصر ما قبل الاستعمار، منشورات وحدة الإعلام والتوعية بالشؤون الإفريقية، معهد الدراسات الإفريقية، القاهرة.

عبد الرحيم، حسن حميدي، 2002، دراسات في النظم السياسية الإفريقية، سلسلة الكتب الدراسية، جامعة القاهرة.

العمري، فضل الله، 1988، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة.

عيسى، عبدالله، "الاستراتيجية العسكرية للاستعمار الفرنسي في السنغال"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الحسن الثاني، المغرب، (2009ـــ 2008).

فتوح، أحمد، " الحواضر الإسلامية بغرب إفريقيا في القرنين 16 و 17م تاريخها السياسي والحضاري والاقتصادي"، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، 1989.

الفوتي، الحاج عمر بن سعيد، 1988، رماح حزب الرحيم على نحو حزب الرجيم، على هامش جوهر المعاني، لعلي برادة، بيروت.

- 1978، تذكرة المسترشدين وفلاح الطالبين، منشور ضمن الأدب السنغالي العربي ، لعامر صمب ، الجزائر، الشركة العامة للنشر والتوزيع.

قداح، نعيم، 1974، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط. 1.

كعت، محمود، 1981، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، وقف على طبعة من غير تغيير نصه مع ترجمته للفرنسية أوكتاف هوداس وموريس دولافوس، باريس، ميزونوف.

كمرا، موسى، 2001، أشهى العلوم وأطيب الخبر، تحقيق أحمد الشكري، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية.

محمد أبو عيانة، فتحي، 1983، جغرافية إفريقية (دراسة إقليمية للقارة مع التطبيق على دول جنوب إفريقيا) الإسكندرية، دار الجامعات المصرية.

محمد بن علي، ابن حوقل، 1979، صورة الأرض، بيروت: مكتبة الحياة.

مخزوم الفيتوري، عطية، 1988، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء(مرحلة انتشار الإسلام)، بنغازي، منشورات جامعة قار يونس، ط..

المقريزي، أحمد بن علي، 2009، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك والخلفاء، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

مونتاي، فنسان، 1983، الإسلام في إفريقيا السوداء، بيروت، دار أبعاد.

وايدنر، دونالد، 1976، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة شوقي عطا الله الجمل، القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ج. 2.

ولد الحسن، أحمد، 1995، الشعر الشنقيطي في القرن 13هـ مساهمة في وصف الأساليب، طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

ولد السعد، محمد المختار، 2002، إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703ـــ1860م، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية.

اليدالي، محمد، 1990، نصوص من التاريخ الموريتاني شيم الزوايا، أمر الولي ناصر الدين، رسالة النصيحة، المكتبة الثقافية المغاربية (بيت الحكمة، قرطاج – تونس).

ثانيا - المصادر والمراجع الأجنبية

Crowder Michael; 1978, A History of West Africa A. D. 1000 to the present, Harlow: Longman Group.
Abd –El-Kader Mademba (captione), 1931, Au Sènègal et au Soudan française, Paris Ve , Librair Larose.
Barry (B.),1988, La Sénégambie du XVe au XIXe siégle : Traite négriére, Islam et conquête coloniale, Paris, éd. L'Harmattan.
Blyden (W), 1881, Chrisianity Islam and the Negro – Race, London.
Boulégue (J.), 1987, Le grand Jolof :XIIIe-XVIe siècle, Blois: Ed. Façades.
Ca Da Mosto (A .De.), 1895, Relation des voyages à la cote occidentale d'Afrique, Paris, publié par M. Charles Schefer.
Carrére (F) et Holl (P), 1855, De la Sénégal française, Paris : Librairie de Firmin.
Cissoko Sékéne Mody, 1988, Le Khasso face à L'empire Toucouleur et à la France dans le Haut Sénégal , 1854-1890 , Paris :L'Harmattan.
Cuoq Joseph, 1984, Histoire de L' Islamisation de L'Afrique de I' Ouest des origines a la fin du XVIe Siècle ,Paris : Libraire orientaliste Paul Genthner.
Curtin (Ph.), 1971, " Jihad in West Africa, early phase and inter-relations, in Mauritania and Senegal" , Jornal of Africa history, XII, No 1.

David (R),1988, La guerre sainte d'Al-Hajj Umar : le Soudan occidental au milieu du XIXe siècle, Paris: Karthala.
Delafosse (M), 2013, Les noirs de l'Afrique Payot, New York: Parkstone.
Desportes (V), 2001, Comprendre la guerre ; préf. du général d'armée Yves Crene, Paris: Economica.
Diagne, (P.) , 2010, L'Afrique, enjeu de l'histoire: afro centrisme, eurocentrisme, sémitocentrisme, L'Harmattan.
Edgar (S), 1898, Africa in Nineteenth Century, London: Seeley Service.
Georges (H), 1932, Louis Faidherbe, Paris.
Georges(H), 1921, La mise en valeur du Sénégal du 1817 – 1584, Paris: Maisonneuve et Larose.
Gouilly (Alphonse), 1952, L'Islam dans l'Afrique occidentale française, Paris: Larose.
Ly-Tall, Madina, 1991, Un Islam militant en Afrique de l'Ouest au XIXe siècle : la Tijaniyya de Saïku Umar Futiyu contre les pouvoirs traditionnels et la puissance coloniale, Paris : L'Harmattan.
Magassiuba(M), **1985, L'islam au Sénégal, demain les Mollahs ? la question musulmane et les partis politiques au Sénégal de 1946 à nos jours,** Paris: Karthala.
Mauny (R), 1961, Tableau géographique de l'Ouest Africain au Moyen- Age , d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, Mémoire de l'IFAN, n61, Dakar.
Meek, Charles Kingsley, 1925, Northern Tribes of Nigeria , Oxford University Pres.
Monique Lakroum, 1992, L'afrique occidentale au temps des français, Paris XIII.
Raffenel (A), 1846, voyage dans L'Afrique occidentale (1843- 1844), Paris.

Robinson (D), 1988, La guerre sainte d'Al-Hajj Umar: le Soudan occidental au milieu du XIXe siècle, par Henry Tourneux et Jean-Claude Vuillemin, Paris : Karthala.
Saint- Martin (J.Y.),1989, Le Sénégal Sous le second empire: naissance d'un empire colonial, 1850-1871, Paris, Karthala.
Saint- Martin (Y), 1967, Empire Toucouleur et la France un demi siécle de relations diplomatiques, (1846- 1893), Dakar.
Trimingham, (J.S) , Islam in West Africa, Oxford.

فهرس الموضوعات